الشيخ عثمان بن فودي الفلاني

عـالم وفـقـيـه، وواعظ ومـربٍّ،

ومـصلح وزعـيم، وقـائد وأمـيـر،

وحـاكم وإمـام، بل هو أمـة وحـده...

الفلانيون ومبدأ ظهورهم

للمؤرخين في أصل الفلانيين أقوال، منها أنهم من الفرس نزحوا من آسيا، ومنها أنهم من اليهود، ومنها أنهم من الروم والعرب وهذا القول الأخير منسوب إلى آل فودي وقد نقله الشيخ عثمان وأخوه عبد الله وابنه محمد بللو عن أجدادهم وعلمائهم الثقاة، حيث قالوا أن الجد الأعلى للفلان عربي، هو عقبة بن نافع الصحابي، وأن الأم العليا لهم رومية تدعى بج مغ، وهي بنت ملك لإحدى قبائل الروم، تزوجها عقبة وأنجبت له أربعة أولاد صاروا فيما بعد آباء القبائل الفلانية بأسرها، في بلاد ونغارة وغانة ومالي وتكرور وسنغى، وبلاد هوسا وبرنو.

وقد ذكر الشيخ محمد بللو في «إنفاق الميسور» أن قبائل الفلان افترقوا ثلاث فرق[1] لبعض وقائع حدثت هناك في القرن الثالث عشر الميلادي.

دخلت فرقة في بلاد فوتاتور، وفرقة أخرى في فوتاجالو وسكنوا هناك وفرقة عزموا على أن يسيروا إلى الشرق ليدخلوا مع قبائل آبائهم العرب فمضوا حتى وصلوا إلى هذه البلاد وأقاموا، واستمر بعضهم حتى وصلوا إلى العرب واندمجوا..

أما الذين تأخروا في بلاد هوسا وانتشروا في أرجائها فهم قسمان:

قسم بدويون يشتغلون بتربية المواشي والزراعة ولهم قطعان من الأبقار والأغنام، وهم دائمًا شبه رحل ينتقلون من مكان إلى مكان في طلب أطيب المراعي لمواشيهم ويسمون برورو.

(١) «إنفاق الميسور» ص٢٢٦.

وقسم حضريون تصاهروا مع السكان الأصليين في البلاد، ولكنهم رغم ذلك محتفظون بمميزاتهم وعصبيتهم وعقيدتهم وتقاليدهم كعادة اليهود.

ومن هؤلاء من يتعاطون التجارة والصناعة وأكثرهم يشتغلون بالتعليم إلى أقصى حد حتى ظهر منهم العلماء الفحول في الفقه والأدب والاجتماع والدين. وللعلماء في قلوب عوامهم مكان مرموق، ولهم قول مسموع، ورأي متبوع، في المنشط والمكره، على أن تمسكهم بدينهم وحرصهم على إحياء معالمه وثقافته ليدل دلالة واضحة على أن عرق الإسلام والعروبة فيهم دساس.

ومن الغريب أن يخلو منهم قطر من أقطار غرب إفريقيا ولا بلد من بلدانها، وأن يتوزعوا في كل أقليم من أقاليم كنو وكاشنة وبرنو وزكزك وغوبر، كأنما تواصوا بذلك فيما بينهم منذ مئات السنين قبل ولادة ابن فودي الذي نظم صفوفهم وقاد جنودهم إلى النصر وأسس بهم دولة إسلامية سجلها التاريخ وسمع بها العالم كله.

نسب الشيخ عثمان بن فودي:

هو عثمان بن محمد فودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غورطو بن جبو بن محمد ثنبو بن أيوب بن ماسران بن أيوب بن بابا ابن موسى جكولو الذي هاجر بجماعته من بلاد فوتاتور على قصد الهجرة إلى الحجاز وتأخر مع طائفته في بلاد هوسا واختلطوا بأهلها حتى ولد فيهم باعث دولتهم فيها «عثمان بن فودي»، فاستمر الباقون في هجرتهم حتى وصلوا إلى دار فوروسنار، وألقوا بها عصا الترحال.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ عثمان بأرض غوبر حوالي ١١٦٩هـ ١٧٤٤م. ونشأ في حجر والديه الصالحين وكان لهما فضل توجيهه إلى الدين والعلم والعبادة.

ولقد أولع بها منذ أن ناهز البلوغ وفتح الله عليه الفتوحات الغيبية، ونوَّر قلبه بالإيمان، فشاهد عجائب ملكوت السماوات والأرض، فجذبه الله إلى حضرته وعممه بعمامة الولاية، وكساه بجلباب الكرامة، فصار من أوليائه الكبار.

مشايخه وطلبه للعلم:

أخذ مبادىء العلم عن والده محمد فودي، ومعناه بالفلانية الفقيه، وعن والدته حواء وجدته رقية، ثم أخذ عن الشيخ عثمان بندور الكبوى، وأخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمدا، وسمع الفقه من محمد ثنبو بن عبد الله، والتفسير من الشيخ أحمد بن محمد بن هاشم الزنفرى، وأخذ الصحاح الست عن الحاج محمد بن راجي، وعن الشيخ جبريل ابن عمر ولازمه مدة في بلاد آهير واستفاد منه. وهكذا أخذ من مختلف الشيوخ وكلهم علماء بلاده من الفلانيين والهوساويين والبرناويين وليس من بينهم عربي واحد، وذلك من فضل الله على أهل السودان في العلم والإسلام.

شخصية عثمان بن فودي:

لقد اجتمع في شخصية ابن فودي عدة صفات لم تتفق ولم تجتمع لكثير من العلماء قبله ولا بعده في بلاد السودان وفي بلاد العربان فيما نعلم ذلك، لأنه أول داعية في أفريقيا، قام بتغيير المنكر بالقلب وباللسان ثم باليد ثم

بجمع الجنود وتشهير السلاح ثم بإقامة دولة تحكم بكتاب الله وسنة رسوله على نمط الحكومات الإسلامية الأولى في صدر الإسلام.

لم يشترك ابن فودي مع أمير أو ملك أو سلطان في تأسيس هذه الدولة كما فعل الشيخ عبد الله بن ياسين الذي استعان بالأمير يحيى بن إبراهيم وأبي بكر بن عمر في تأسيس دولة المرابطين، أو كما استعان الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بالأمير السعودي في تأسيس الدولة السعودية.

ولم ينتحل دعوى الفاطمية ولا المهدوية كما فعل محمد بن تومرت في تأسيس دولة الموحدين بالمغرب، أو كما فعل أحمد المهدي في تأسيس دولة الدراويش في السودان المصرى.

ولقد شارك ابن فودي العلماء والفقهاء في إفادة قومهم بأقلامهم، وأخرج لهم عدة كتب في مختلف الفنون الدينية والسياسية والثقافية، ونجب على يديه أكثر من مائة عالم فقيه، ممن بلغوا رتبة الاجتهاد المذهبي في الفقه المالكى.

ثم شارك ابن فودي الصوفيين في تهذيب أخلاق المسلمين، وسلك مسلك أهل الطرق الصوفية في تربية النفوس بالأذكار والأوراد، وانشأ طريقة منسوبة إليه باسم الطريقة الفودوية وهي فرع من القادرية.

حيث كان ابن فودي نفسه قادريًا في الأصل، وسلسلته في القادرية متصلة بالشيخ محمد المختار الكنتي في ورد أهل البيت، وهي المنتشرة في هذه البلاد قبل ظهور السلسلة السمانية المشرقية المنتشرة الآن.

ثم شارك ابن فودي المجاهدين في سبيل الله بأنفسهم، فحمل السلاح

وقاد الجنود وقاتل حتى جعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلي، وأسس دولة إسلامية اكتسحت جميع البلاد المعروفة اليوم بالولايات الشمالية من بلاد نيجيريا، تشمل ما لا يقل عن ثلاثين مليون نسمة، خمسة وعشرون منهم مسلمون.

وجملة القول أن ابن فودي عالم وفقيه وواعظ ومرب ومصلح وزعيم وقائد وأمير وحاكم وإمام، بل هو أمة وحده.

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ابن فودي الأشعري في عقيدته:

كان الشيخ عثمان بن فودي أشعريًا كسائر علمائه، وله كتيب صغير يقول فيه:

«أما بعد فهذا كتاب أصول الدين نافع إن شاء الله تعالى لمن عول عليه وبالله التوفيق:

العالم كله من عرشه إلى فرشه حادث وصانعه الله تعالى، وهو تعالى واجب الوجود قديم لا أول له، باق لا آخر له، مخالف للحوادث، ما هو بجرم ولا صفة للجرم، ولا جهة له ولا مكان له، بل هو كما كان في الأزل قبل العالم غني عن المحل، والمخصص واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، قادر بقدرة مريداً بإرادة، عالم بعلم، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مختار في فعله وتركه، والكمال الإلهي كله واجب له، والنقص الذي هو ضد الكمال الإلهي كله مستحيل عليه.

ورسله كلهم من آدم إلى محمد ﷺ صادقون أمناء مبلغون ما أمروا بإبلاغه للخلق، والكمال البشرى كله واجب لهم، والنقص البشري كله مستحيل عليهم.

ويجوز في حقهم الأكل والشرب والنكاح والبيع والشراء والمرض الذي لا يؤدي إلى النقص.

والملائكة كلهم معصومون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون نورانيون ليسوا بذكور ولا إناث ولا يأكلون ولا يشربون.

والكتب السماوية كلها حق، والموت بالأجل حق، وسؤال منكر ونكير المقبور وغيره حق، وعذاب القبر حق، ونعيمه حق، ويوم القيامة حق وبعث الأموات في ذلك اليوم حق، وجمع الناس في ذلك اليوم في مكان واحد حق، وإيتاء الكتب حق، والحساب حق، والصراط حق، والجنة حق، والكوثر حق، والنار حق، ودوام الجنة والنار مع أهلها حق، ورؤية المؤمنين له تعالى في الآخرة حق، وكل ما جاء به محمد ﷺ حق.

فهذه أصول الدين إلهياتها ونبوياتها وسمعياتها قد أثبتها الله في القرآن كلها، ويجب على كل مكلف أن يعتقدها كما جاءت، واعتقاد هذه الأصول في حق العامة قائم مقام العلم في حق الخاصة لعسر وقوفهم على الأدلة. قاله عز الدين سلطان العلماء في «قواعد الأحكام في إسلام الأنام» قال: ولذلك كان ﷺ لا يلزم أحداً ممن أسلم بالبحث عن ذلك، بل كان يقرهم على ما يعلم أنه لا انفكاك لهم عنه، وما زال الخلفاء الراشدون والعلماء المهتدون يقرونهم على ذلك.

لقد كتب الشيخ عثمان بن فودي رسالة سماها: «هداية الطلاب» أودع فيها آراءه في التقليد والإجتهاد، ومع ذلك فهو مجتهد في المذهب المالكى، قال في الرسالة: أما بعد، فهذا كتاب «هداية الطلاب» أودعت فيها عشرة أشياء:

أولها: أن جميع ما جاء عن الشارع عليه الصلاة والسلام لا يسمى مذهبًا لأحد بل هو شريعة تجب إجابة كل من دعا إليه.

ثانيها: أن الله تعالى لم يوجب على أحد في كتابه، ولا رسوله في سنته، التزام مذهب من مذاهب المجتهدين بخصوصه، ولم يبلغنا أن أحدًا من علماء السلف أمر أحدًا أن يتقلد بمذهب معين ولو وقع ذلك لأوقعوا في الإثم لتقويتهم العمل بكل حديث لم يأخذ به ذلك المجتهد الذي أمر باتباعه وحده.

ثالثها: هل يجب على العامى وغيره ممن لم يبلغ مرتبة الاجتهاد التزام مذهب؟ قولان: الأول نعم، وصححه فى: «جمع الجوامع» والثانى لا، واختاره النووى.

رابعها: هل يجوز خروجه بعد التزام مذهب معين عنه؟ قيل: نعم مطلقًا وصححه الرافعي، وقيل: لا مطلقًا لأنه التزمه، الثالث: لا يجوز في بعض المسائل.

خامسها: أن كل واحد من المجتهدين لا يتَّبع قوله إذا خالف نص الكتاب أو نص السنَّة والإجماع.

سادسها: أن كل ما فهمه أصحاب كل مجتهد من كلامه لا يسمى مذهبًا له. وقد كثر تساهل الناس بعد ذلك حتى عزوا مفاهيم كلام المؤلفين والشارحين إلى مذهب ذلك المجتهد الذي قلدوه، وانحل الأمر إلى تقليد بعضهم بعضًا حتى صار كل كتاب نحو عشرين مجلدًا لا يجيء كلام المجتهد مجلدًا واحدًا من هذه المجلدات.

سابعها: يجب على كل مكلف أن يعتقد أن سائر أئمة المسلمين على هدى من ربهم.

ثامنها: يجب على كل مكلف أن لا ينفر نفسه من العمل بأقوالهم، وقد صار بعض الناس اليوم إذا اضطر إلى العمل بقول غير إمامه، يقول يقلد فلانًا للضرورة، من باب الضرورات تبيح المحظورات. كأنه وقع في معصية بل فعله هذا هو المعصية الكبرى فيجب عليه التوبة والاستغفار من ذلك، فإنهم لو كانوا يعتقدون أن الأئمة على هدى ما نفرت نفوسهم من العمل بأقوالهم لأن الهدى لا تنفر منه نفس من شاهده أنه هدى.

تاسعها: إن كل من ترك ما اختلف في وجوبه، أو فعل ما اختلف في تحريمه، لا ينكر عليه إن قلد بعض العلماء في ذلك، إلا أن يقلد في قول خالف نص الكتاب، أو نص السنَّة، أو الإجماع.

وأما إن وافق قول مجتهد أهل السنة فلا ينكر عليه، والمراد بالإنكار إنكار الحرام، ولو أنكره إنكار الإرشاد أو أمر به أمر النصح والإرشاد فذلك نصح وإحسان. وهذا كله في باب الحكم والعمل.

وأما في باب الفتوى فينكر عليه إذا أفتى بالشاذ والمرجوح، لأن الفتوى بهما لا يجوز إجماعًا بالمشهور والراجح.

عاشرها: إن من ينكر عليه إنكار الحرام هو الذي خالف نص الكتاب أو نص السنة، أو الإجماع. انتهي الكتاب.

عثمان بن فودي الصوفي المجذوب:

يقول السلطان بللو في كتابه «إنفاق الميسور» ما نصه: «أخبرني والدي أنه حين حصل له الجذب الالهي ببركة الصلاة على النبي ﷺ، إذ كان يواظب عليها من غير ملل، ولا كلال ولا فترة، أمده الله بفيض الأنوار بواسطة الشيخ عبد القادر الجيلاني، رضي الله عنه، وجده الرسول ﷺ، فشاهد من عجائب الملكوت، وحصل على غرائب الجبروت، وشاهد افعال الأسماء والصفات والذات، ووقف على اللوح المحفوظ، وفك رموزه الملحوظ، وكساه الحق تعالى حلة الدعوة إليه، وتوّجه تاج الهداية والإرشاد إليه.

وكتب الشيخ عثمان عن نفسه في رسالة سماها: «ولما بلغت ستًا وثلاثين» أودع فيها بيان الجذب الإلهي الذي حصل له، وبيان تلقينه الورد الخاص به، وهو أن يقال: الحمد لله رب العالمين عشر مرات، اللهمّ صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عشر مرات، أستغفر الله العظيم عشر مرات. يذكر هذا الورد مرة واحدة في اليوم.

وهو ورد خفيف وقصير لا يأخذ الوقت الطويل الثقيل، يستطيع الإنسان أن يذكره على حالة الاستعجال فيحصل له الفضل الكبير والأجر الجزيل.

بين ابن فودي وابن عبد الوهاب:

افترض الإفرنج وبعض من نقلوا عنهم أن ابن فودي حج إلى بيت الله الحرام واجتمع بعلماء الدعوة الوهابية وتأثر بها، ولما رجع إلى بلاده قام

بإصلاحه وجهاده. وذلك الافتراض مبنى على الظن والتخمين، لا أساس له في حياة ابن فودي كلها، ولا علاقة بين دعوة ابن فودي ودعوة ابن عبد الوهاب من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول:

إن الدعوة الوهابية إنما قامت أول قيامها في بلاد نجد ١١٥٣هـ، ولم تنتشر في الحجاز انتشارًا يجعلها مقبولة أو معروفة في العالم الإسلامى قبل قيام دعوة ابن فودي التي قامت ١١٨٠هـ.

ولم تعرف الدعوة الوهابية في مكة المكرمة إلا في ١٢١٨هـ، وقد بلغت في هذا التاريخ دعوة ابن فودي ذروتها وبدأ في الجهاد مع ملوك هوسا.

أما دعوة ابن عبد الوهاب فلم تلق ترحيبًا لدى علماء الحرمين حتى ينقلها الحجاج، بل دامت مقاومتهم لها إلى حين أن ألف مفتي مكة الأكبر الشيخ أحمد زيني دحلان المتوفَّى ١٣٠٤هـ كتابًا في الرد على الوهابية سارت به الركبان إلى مختلف البلدان.

وهكذا لقيت الدعوة الوهابية مقاومة السلطان محمود الثانى الذي أصدر أمره إلى محمد على والى مصر أن يكسر شوكة الوهابيين السعوديين، فتغلب الجيش المصري التركي على الجيش السعودي الوهابي، وأسروا أميرهم عبد الله بن سعود وأرسلوه إلى الآستانة واحتلوا عاصمتهم الدرعية وخربوها ١٢٣٣هـ. وذلك بعد وفاة ابن فودي بسنة، وبقوا هناك خمس سنين ثم استردها الوهابيون السعوديون، ولكن لم تستقر دعوتهم في أرجاء مكة والمدينة لبقائها تحت حكم الأشراف ومقاومة العلماء.

ولم تستقر الدعوة الوهابية في الحجاز إلا بعد استيلاء الملك عبد العزيز على مكة عام ١٩٢٥م.

الوجه الثاني:

أنه لم يكتب الله لابن فودي حجًا ولا عمرة، ولم يخرج مطلقًا من حدود بلاده إلى بلاد العرب. ولو أنه حج أو زار بلدًا من بلاد العرب لكتب ذلك في مؤلفاته أو لكتبه عنه تلاميذه الذين سجلوا حياته والحوادث التي تعلقت بها من صغيرة وكبيرة. لقد حاول عبد الله بن فودي أخو عثمان أن يخرج إلى الحج، ولكنه حيل دون قصده عندما وصل إلى مدينة (كنو)، ثم رجع إلى الجماعة وانضم إلى الموكب، انظر «ضياء الحكام وتزيين الورقات» لعبد الله بن فودي.

الوجه الثالث: انه يختلف مذهب ابن عبد الوهاب عن مذهب ابن فودي في أصول دعوتهما لأربعة أسباب:

الأول: ابن فودي مالكي المذهب، أشعرى العقيدة، قادري الطريقة. وابن عبد الوهاب حنبلي سلفي -والسلفيون غالبًا حنابلة- ولا طريقة لهم.

الثاني: لم يرد ذكر محمد بن عبد الوهاب في مؤلفات ابن فودي وأخيه وابنه ولا أحد من تلاميذهم، وذلك مما يدل على انهم لم يتصلوا بدعوته، ولو اتصلوا بها لذكروها في اشعارهم ومؤلفاتهم، كما يذكرون اسماء المشايخ الذين نقلوا عنهم، كابن الحاج والأزرق والسيوطي، وقلما ذكروا ابن تيمية في مؤلفاتهم. ولقد ذكروا من تشرفوا بلقائهم، أو سماع أخبارهم من العرب كالشيخ محمد المختار الكنتي وغيره.

الثالث: كان ابن فودي يعتقد في التوسل بالنبى ﷺ والولى. وله في قصائده توسلات كثيرة جدًا بالنبي ﷺ والصحابة والأولياء. وقد عرَّب أخوه عبد الله قصيدة أعجمية نظمها في التوسل بالشيخ عبد القادر، وهي في نحو أربعين بيتًا جاء فيها:

يا رب عالم باطن كالظاهر	أجب الذي يدعو بعبد القادر
بركات أحمد في بلاد الله قد	عمت وجمت عند عبد القادر
يارب يا متفضلاً لعباده	صلنى بفضلك عند عبد القادر
إن المسيء لدى الأكابر يلتجي	فلجأت عند الشيخ عبد القادر
ما كنت أهلاً إن أجاب أجب لكو	ن وسيلتي درجات عبد القادر
عربت ما لأخي وشيخي عجمة	متوسلين معًا بعبد القادر

والغرض من إثبات المقارنة بين أساس الدعوتين هو إثبات القول بأن دعوة ابن فودي متأثرة إلى حد بعيد بالنزعة الصوفية وبالعلماء المغاربة والسودانيين، وإنها قائمة بذاتها، لا متفرعة عن غيرها، ولا معتمدة على غيرها، ثم الإثبات بأن رسالة الإسلام وثقافته بضاعة عالمية يقوم بحملها الأسود والأحمر، كما يقوم بذلك الأبيض والأسمر.

وإن العربية، كما قال النبى ﷺ، ليست من أحد بأب ولا بأم، وإنما هي لسان، وكل من تكلم بالعربية فهو عربى. وقد حقق ابن خلدون ما للعجم من فضائل جمة على الإسلام والعربية من الصدر الأول للإسلام إلى يومنا هذا. وليس ببعيد عنا السيد جمال الأفغانى نافخ روح النهضة الحديثة في

نفوس العرب، والسيد أبو الحسن الندوي الكاتب الإسلامي الكبير في هذا العصر، وأمثالهم الكثيرون..

وضع البلاد قبل قيام ابن فودي للإرشاد:

كانت هذه البلاد منذ طلوع فجر الإسلام فيها تتأرجح بين ظلمة الكفر، ونور الإيمان، وكان الإسلام فيها يتقلب بين كفتي النقصان والرجحان، ويتراوح بين الانتشار والانحسار، هكذا يتقلب حتى العصر الذي ولد فيه ابن فودي.

وقد بلغ الفساد غايته، وكادت آثار الإسلام تنمحى، وقد ارتد أكثر المسلمين بأفعالهم وإن كانوا يدينون بالإسلام بلسانهم.

وعبد الآخرون الأحجار والأشجار والأنهار، وصاروا يرجونها لدفع الشر وجلب الخير، وتعالى الملوك والسلاطين في الجور والطغيان.

وركن العلماء إلى الراحة والدعة، وتهادنوا مع الطغاة الجبابرة.

وفي هذا الوسط المنكدر، وهذا الجو المكفهر ولد الشيخ عثمان بن فودي من أسرة مؤمنة، وتربى على أيدي علماء صالحين، وتثقف بهم في الدين والعلم والعمل والصلاح والورع، ولما بلغ مبلغ الرجال العاملين المجاهدين في سبيل الله أدرك أهل زمانه على خمسة أقسام:

القسم الأول: كفار بالأصالة يعبدون الأشجار والأنهار والجان والشياطين ولم يرتضوا بشيء غير الكفر بديلاً.

والقسم الثاني: مرتدون عن الإسلام من جراء اختلاطهم بالكفار، ويسمون «ما غنداوي».

والقسم الثالث: مسلمون يقرون بالتوحيد ويصلون ويصومون ويزكون، ولكنهم جهلاء يأتون بالعبادات على غير استكمال شروطها، ثم يخلطون عباداتهم بالبدع والعادات الكفرية والرواسب الجاهلية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم أو أحدثوها من أنفسهم.

والقسم الرابع: العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا واستمالوا لزخارفها، وتهادنوا مع الملوك الظالمين، وسكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد لقي ابن فودي من هؤلاء أذى وجفاء، ومثلهم كمثل ما ذكر محمد أسكيا للشيخ المغيلي عند استفتائه وقال:

«.. وقد ابتلينا في بلادنا بعدم الأمانة فيمن ينسب له العلم من قرائنا، ومن صفتهم أنهم عجم لا يفهمون من كلام العربية إلا قليلاً، ومع ذلك لهم كتب يدرسون وقضاة مفسدون، يتكلمون في دين الله بما يشاؤون ويزعمون أنهم ورثة الأنبياء، وإنه يجب علينا الاقتداء بهم».

والقسم الخامس: العلماء الصالحون العاملون، والذين يقتدون بهم من تلامذتهم من الذين يعملون على نشر الهداية والحق. ومن هؤلاء كان مشايخ ابن فودي الذين ربوه وعلموه حتى أنجبوه هو وأصحابه الذين نصروه في دعوته.

منهج ابن فودي في الدعوة:

كان له مجلسان: أحدهما للتدريس والآخر للوعظ والإرشاد.

أما تدريسه فكان يخرج بعد صلاة العصر والعشاء للتدريس، يفسر القرآن ويدرس الحديث والفقه والتصوف وسائر العلوم الأخرى.

أما وعظه فكان يخرج له ليلة كل جمعة، ويعظ الناس فيها، وكان يحضر مجلس وعظه خلق كثير، رجالاً ونساء.

وكان يخرج إلى الآفاق القريبة والبلدان المجاورة للإفادة والوعظ أيامًا ثم يرجع إلى بلده. وكان منهج وعظه على خمسة أقسام:

الأول: فيما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة.

الثاني: في البحث على اتباع سنة رسوله.

الثالث: في رد أوهام الطلبة في التوحيد والفقه والتصرف إلى الصواب.

الرابع: في إخماد البدع الشيطانية ورد العادات الرديئة.

الخامس: في بث العلوم الشرعية، وتحرير المشكلات، والإفادة بالغرائب والنوادر في العلوم.

وكان إذا جلس لوعظه بدأ يحدث الناس في فن أصول الدين ثم في فن الفقه.

يبدأ من باب الاستنجاء ثم الوضوء وصفته ثم الغسل والتيمم والصلاة وقضاء ما فات من الصلاة ثم سجود السهو ثم في الزكاة والصيام والحج والزكاة واليمين، ثم النذر، ثم النكاح، ثم البيع.

ثم يذكر الناس في فن التصوف، ويذكرهم بآيات الترهيب وذكر النار ثم بآيات الترغيب وصفات الجنة.

وكان يقرأ كل ذلك من تأليفه أو من مؤلفات أخرى، ويترجم ذلك إلى لغة الحاضرين، وإذا أتم ذلك كله انصرف من مجلسه.

صار للشيخ عثمان صيت عظيم في الآفاق بوعظه ودروسه، وصار يقصده الأقربون، ويكاتبه الأبعدون، وتكونت من المستمعين لوعظه هيئة منتظمة سماهم الجماعة، وهم الذين صاروا له أنصاراً في دعوته الإصلاحية.

ولما علم الشيخ بأن بلاد (زنفر) تحتاج إلى مرشد يأخذ بأيدي أهلها توجه إليها وأقام فيها خمسة أعوام، ثم جال في أطراف بلاد (كبي) حتى جاوز نهر النيجر إلى ناحية الجنوب، ودخل بلاد الدند ومكث في بعض عواصمها فتاب على يديه خلق كثير ثم عاد إلى وطنه.

وكان الشيخ ابن فودي في المبدأ لا يتصل بالملوك والأمراء ولا يزورهم، كما يزورهم العلماء في الأعياد والمواسم. ولكن ملك (غوبر) لما سمع بأمره وكثرة جماعته أرسل إليه يستحضره مع جملة من العلماء، ولما رأى ابن فودي أن لابد من المسير إليه ليتم بذلك عمله وتتقوى دعوته ويتحقق ما يدعو له، أجاب دعوة الملك المسمى «بساو» ملك (غوبر). ولما حضر بين يديه قام وشرح له الإسلام الصحيح، وطلب إليه الرجوع إلى إحياء معالم الإسلام وإقامة العدل بين الرعية وتطبيق الأحكام الشرعية، فكان من توفيق الله أن أجابه الملك بالسمع والطاعة وأسند إليه الفتوى في مجلسه. فصار ابن فودي المرجع الوحيد للملك من بين أولئك العلماء فأخذ هؤلاء يحسدونه على هذا الشرف ويعيرونه في اتصاله بهذا الملك، وصاروا يرمونه بطلب الجاه وحب الرئاسة والرياء وينسبونه إلى الهوى، وتجنى عليه بعض العلماء وتطلبوا له المثالب والمعايب في أفعاله وأقواله، وجعلوا ينكرون عليه بعض تصرفاته. من ذلك ما كتب إليه الشيخ الماهر الذي استنكر عليه حضور النساء لوعظه، يقول:

عليك منا تحيات مباركة ... شممن مسكًا وسكا من يلاقونا

أيا ابن فودي قم فأنذر أولي الجهلا ... لعلهم يفقهون الدين والدونا

فامنع زيارة نسوان لوعظك إذ ... خلط الرجال بنسوان كفي شينًا

لا تفعلن ما يؤدي للمعايب إذ ... لم يأمر الله عيبًا كان يؤذينا

إن الممات وما بعد الممات وجهلا ... بالعواقب وعظ كان يكفينا

وأبيت المصطفي بج يتممها ... في عام رش مع زيد العد يغنينا

ولما تلقى الشيخ هذه الرسالة أمر أخاه عبد الله أن يرد عليها، فجاء الرد على مثل بحرها ورويها كالآتى:

يا أيها ذا الذي قد جاء يرشدنا ... سمعًا لما قلت فاسمع أنت ما قلنا

نصحت جهدك لكن ليت تعذرنا ... وقلت سبحان هذا كان بهتانًا

إن الشياطين إن جاءوا لمجلسنا ... هم من يبثون سوء القول طغيانًا

لسنا نخالط بالنسوان كيف وذا ... كنا نحذر لكن قلت سلمنا

إن كان ذاك ولكن لا أسلم أن ... يتركن بالجهل هملاً كان يؤذينا

إذ ارتكاب أخف الضر قد حتما ... يكفر الجهل إن ذا كان عصيانا

هذى البلاد وجدنا قومها غرقوا ... بالجهل نمنعهم أن يفقهوا الدينا

قد قيل تحدث للأقوام أقضية ... بقدر ما أحدثوا خذ ذاك ميزانا

الحمد لله ذي الأنعام هادينا ... ثم الصلاة على المختار هادينا

وآله وصحبه أبياتنا كملت ... وعدها حب والتاريخ نشقنا

هذه صورة مصغرة مما كان يجري بين ابن فودي وبين المناوئين له من علماء زمانه، غير أنه كان يرد عليهم هو بنفسه أو ينيب أخاه عبد الله أو ابنه محمد بللو، فيأتي الرد ببراهين ساطعة وحجج قاطعة، فيقتنع بعضهم للحق أو يمتنع الآخر فيركب رأسه ويتمادى في اللجاج.

هكذا صار الشيخ ابن فودي يترقى في شأنه وتزداد جماعته الذين يسمعون قوله ويطيعون أمره، حتى صار الملك يتوجس منه خيفة على عرشه.

ولم يفتر الشيخ ينصحه كلما أحس أنه يميل عن جادة الاستقامة، ولم يكن يلاطفه ويداريه كما يفعل العلماء، إلى أن فتح ذلك كله باب السعاية والوشاية بينه وبين الملك، فأفسد العلماء ذات بينهما، فصار الملك يتحين فرصة الانتقام. ولما طال عليه ذلك التجأ إلى سياسة شراء الضمائر بالأموال ليقطع به لسانه عن التصريح بالحق. فاجتمع لديه علماء أرضه يوم عيد الأضحى سنة ١٢٠٢هـ حسب عاداتهم كل عام، فتقدم الملك إليهم بالهدايا والصدقات من الأموال والأعراض، ففرح بها العلماء ومدحوا الملك كثيراً وأثنوا على صنعه، وخلعوا عليه جميع أوصاف العدل والاستقامة.

ولما فطن الشيخ عثمان بحقيقة الأمر وعلم أن ذلك كله أحبولة الصيد أو هو إحسان لقطع اللسان، رفض نصيبه من عطيات الملك من جميع الأموال والأعراض، وصرح بأن حاجته الوحيدة في اتصاله بالملك والدخول عليه وزيارته، إنما هي النصح والإرشاد لا غير.

و على هذا خرج الجميع من الملك وقد امتلأ صدره من ابن فودي حقداً، كما امتلأ صدر العلماء منه حسداً، ومضى الشيخ في شأنه لا يلوي على شيء من ذلك كله.

ولم تزل جماعته تزداد وتتكاثر، ولم تزل همته تمتد وتتضاعف.

ثم التجأ الملك إلى حيلة أخرى تشفي منه غيظه ويرتاح ضميره، ولم يجد ذلك إلا في محاولة اغتيال الشيخ على غرة من جماعته، فأرسل إلى الشيخ يومًا يطلب حضوره إلى مدينة الملك ليفتيه في مسألة خطيرة، فذهب الشيخ ومعه صديقه عمر الكموني وأخوه عبد الله، فلما دخلوا عليه أقعدهم في إحدى غرف قصره وغافلهم حتى أطلق عليهم الرصاص فجأة وعلى غرة، ولكن الله رد كيده في نحره، فرجعت إليه النار بإذن الله فارتمى على الأرض ولم يصب مقتله.

ثم دنا منهم وهو يعتذر إليهم ويستميحهم فأغلظوا له القول وخرجوا من قصره إلى بلدهم سالمين، وهم يشكرون الله على هذه الكرامة الباهرة.

وكان بالقرب من مدينة هذا الملك قرية اختصها المسلمون الفلانيون تحت زعامة رجل يدعى الشيخ عبد الله الفلاني، وهو عالم تقي وورع وواعظ مرشد وكان ينصح قومه بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه والعمل بما يدعو إليه ابن فودي.

فقام الملك بشن غاراته عليهم في حين غفلة منهم وفي نهار رمضان، فقتل علماءهم وقراءهم، ونهب أموالهم وسبى نساءهم وذراريهم، فزاد الملك ذلك تكبرًا وطغيانًا، وصار أتباعه وأنصاره يهددون جماعة الشيخ بمثل ذلك ويتوعدونهم سرًا وجهرًا، ولكن الشيخ يطمئن جماعته بأن الله ينصرهم ولن بترهم أعمالهم.

وبينما هم في هذه الحالة إذ بالملك باو يقضى نحبه ويخلفه ابنه يُنّيف، وكان أشد بأسًا من ابيه وأكثر طغيانًا ونزوانًا.

ولم يلبث عقب توليه حتى أرسل إلى الشيخ عثمان يأمره بالخروج من بلده الذي كان يقيم به هو وعياله، ليبتعد عن حدود بلاده إلى بلاد أخرى من غير أن يصاحب أحدًا من جماعته غير عياله، فأخبر الشيخ عثمان الجماعة بالخبر فكان سببًا في تقوية روحهم المعنوية، فعزم الجميع على الخروج مع شيخهم فاستعدوا للهجرة، فلما سمع الملك بذلك سقط في يده وطلب إليهم جميعًا ملازمة مكانهم فامتنعوا.

هجرته ومبدأ دولته:

هاجر الشيخ وجماعته من قرية طغل عام شريح ١٢١٨هـ. ونزلوا بأطراف الصحراء على حدود بلاد غوبر بالمكان المسمى قدو، وهم يبلغون خمسة آلاف نسمة.

فقام الفقيه الشيخ اغال التاركي يحرض المؤمنين في جميع أنحاء تلك البلاد على الهجرة إلى مكان الشيخ، ودعا إخوانه من التوارك إلى معاونة الشيخ وحمايته من كل ما يتوقع من أعداء الله.

وكذلك قام الشيخ محمود غردم والشيخ على جيد الذي صار فيما بعد قائدًا عظيمًا من قواد ابن فودي الذين قاموا لنصرته.

فتتابعت أمواج الهجرة إلى مكان الشيخ حتى كثر المهاجرون فبلغوا نحو عشرة آلاف، فجعل أهل غوبر يقطعون الطريق على المهاجرين وينهبون أموالهم.

ثم كتب الملك إلى الشيخ يطلب منه الرجوع إلى مكانه الأول، فرد عليه الشيخ بالرفض حتى يتوب من ذنوبه ويرجع إلى الإسلام الصحيح ويرد جميع ما سلب أتباعه من الجماعة من أموالهم.

فاستفتى الملك علماءه فقالوا له مثل ما قالت اليهود لكفار قريش في أمر النبي ﷺ، إن الملك على الحق وابن فودي وجماعته على الباطل، فازداد الملك بذلك تكبرًا وطغيانًا، ثم أرسل إلى ابن فودي يعلن عليه الحرب لاستئصال شأفته هو وجماعته. فلما بلغ الخبر الجماعة ضاقت عليهم الأرض برحبها، ثم رأوا أن لابد من مقاومة هذه الحالة، فاتفقوا على مبايعة الشيخ على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله. ولقد كان ابن فودي إمامهم ومعلمهم ومرشدهم، فليكن من الآن قائدهم وأميرهم، وعزموا على ذلك وتوكلوا على الله.

يرى القارىء المنصف من سرد هذه الأسباب والحوادث أن ابن فودي وجماعته إنما اضطروا إلى ما صاروا إليه من أمر الدولة، فكان على وفق إرادة الله تعالى، كمثل قصة أبينا آدم في هبوطه إلى الدنيا من جراء أكله من الشجرة التي نهي الله عنها ليتم سكنى الأرض وعمارة البلاد.

أو كمثل هجرة النبي من مكة المكرمة بدينه إلى المدينة المنورة لإقامة دولة الإسلام فيها.

تمام البيعة وقيام الدولة:

أول من بايع ابن فودي أخوه عبد الله ثم صديقه عمر الكموني ثم ابنه محمد بللو ثم سائر العلماء والأعيان من أصحابه وتلاميذه.

ولقد بايعوه على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، والسمع له والطاعة في المنشط والمكره وكان ذلك عام ١٢١٨هـ ١٨٠٤م.

وبعد تمام البيعة عمد إلى تشكيل الدولة على النظام الإسلامي، فاختار أخاه عبد الله وزيره الأول، وصديقه عمر الكموني وزيره الثاني، وصديقه محمد ثنبو بن عبد الرحمن إمامهم في الصلاة وقاضيهم في الخصومات، وجعل محمد بن الحسن الملقب سعدار صاحب اللواء وقائد الجيوش وهكذا..

فتم بذلك تشكيل الدولة الإسلامية العظيمة التي تنفذ أوامر الله ورسوله وتحافظ على حدودهما وتحمي ذمار المسلمين وتدافع عن أرواحهم وأموالهم.

فاطمأنت نفوس الجماعة للعبادة فانشرحت صدورهم للجهاد وأعدوا لذلك كل قوة ورباط، وبنوا على مكانهم حصنًا حصينًا وحفروا حول الحصن خندقًا عميقًا.

فجمع ملك غوبر أوباشًا من النوبة والتوارك والهوسا فأقبل بجنوده للهجوم عليهم في مكانهم.

فزحف إليهم المسلمون للدفاع عن أنفسهم، فقاد الشيخ عبد الله هذا الجيش فالتقى الجيشان في مكان اسمه كوتو، فهزم الله جيوش يُنيفَ بأيدي المؤمنين فغنموا أموالهم وأسلحتهم، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الله قصيدة جاء فيها:

بدأت ببسم الله والشكر يتبع على قمع كفار علينا تجمعوا

ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من ... بلادهم والله في الفضل أوسع
توارك مع غوبر وينف سفيههم ... يخربهم والله يرى ويسمع
فقلت وفألى مثل أمر محقق ... لدى سينفي ينف بالذل يرجع
إلى أن تراءينا وزاد اقترابنا ... رموا فرميناهم فولوا واقشعوا
فلم يك إلا أن رأيت جهامهم ... قد انكشفت عن شمس الإسلام تلمع
بنصر الذي نصر النبي على العدى ... ببدر بجمع ململائك يجمع[1]
فيا أمة الإسلام جدوا وجاهدوا ... ولا تهنوا فالصبر للنصر مرجع
فقتلاكم في حنة الخلد دائمًا ... وراجعكم بالعز والمال يرجع
فقد تم وعد الله في نصر دينه ... ولم يبقَ إلا شكره والتضرع

فشاع خبر هزيمة غوبر بين ملوك هوسا السبع «ملوك هابي» فنكسوا على رؤوسهم وأوجسوا على أنفسهم خيفة مما لاقاه أحد حلفائهم من أيدي الفلانيين تحت إمرتهم، فبعث إليهم ملك غوبر ينف رسولاً يستنجدهم ويستحثهم على ابن فودي وجماعته، وعلى سائر الفلانيين المتوزعين في تلك الرقاع الواسعة من البلاد.

فلما بلغ ابن فودي الخبر بعث بدوره الرسائل إلى أولئك الملوك يوضح لهم الحقيقة ويدعوهم إلى نصرة الإسلام، والتعاون على البر والتقوى فأبي أكثرهم إلا نفوراً.

فأخذ كل ملك من ملوك هوسا يضطهد كل من بناحيته من أعوان الشيخ

(١) قوله «ململائك» نحت وأصله من الملائك.

من الهوساويين والفلانيين، بل يقتلون من قدروا عليه، فجعل هؤلاء يشكون بثهم وحزنهم إلى الله ثم يستنجدون بالشيخ. وكتب الشيخ إلى جميع أنصاره وأتباعه في كل بلدة وفي كل مدينة من بلاد هوسا ومدنها أن يستعدوا للدفاع عن أنفسهم ويستعينوا بالله على أعدائهم لينصرهم الله عليهم.

أوفد كل طائفة من هؤلاء إمامهم أو قائدهم أو رئيسهم إلى ابن فودي ليبايعه ويأخذ منه لواء الجهاد في سبيل الله.

فعقد ابن فودي لهم ما يبلغ أربعة عشر لواء مع كل قائد، وأذن لكل قائد أن يجاهد المناوئين له في ناحيته، ثم جهز جيشًا وأمر عليه عبد الله إلى حصن القالاوي الذي هو أمنع حصون ملك غوبر، بل هو أمنع حصون بلاد هوسا على الإطلاق، فاستعصى عليهم فتحه فرجعوا بعد مدة، فتبعهم جيش غوبر وباغتهم في مكان يدعى ثنثو، فاستشهد فيها خيار أصحاب الشيخ، منهم صاحب اللواء محمد بن الحسن والإمام محمد ثنبو وأمثالهم من الفقهاء والفقراء، فحمل اللواء من يومئذ نمود وعلي جيد. وفي هذا يقول الشيخ عبد الله:

تذكرت والذكرى تثير لذي النوى ... همومًا وفي الذكرى تهب صبًا الهوى

أخلاي ماتوا في الجهاد وغيره ... وبعدي عن شيخي فأرقني الجوى

متى ما تذكرت الإمام وحزبه ... تموج في قلبي بحور من الدوى

فإن سر غوبر والتوارك ذاك والـ ... ـقتال سجال ليس مرجعنا سوا

فمن قتلاهم في جهنم دائمًا ... ومن في جنان الخلد ليسوا على استوى

وكم مرة جاءوا بياتًا فأفتشعوا ... وما فيهم من صوب صاحبه ضوى
وطورًا أتوا جمعًا وحينًا توزعوا ... بشرق وغرب ثم خاب الذي غوى
ولما رأونا لا نمل جهادنا ... لقتل وأسر جلهم خاف فارعوى
ففروا إلى البلدان شتى وجمعهم ... بجمع أناس كان في سبإ بوا

ثم جهز الشيخ عبد الله بنفسه جيش الفتوح وقاده إلى بلاد كبي التي شقت عصا أميرها عثمان وخلعته وطردته من ملكه، لأنه يناصر الشيخ وجماعته ويدعو بما يدعون إليه من نصرة الحق وإظهار الإسلام، ففر هاربًا إلى الشيخ ولذلك جهز الشيخ عبد الله له جيشًا توجه به إلى بلاده، فحمل اللواء على جيدو، ومروا على بلاد زنفرة ففتحها الله عليهم من غير قتال، واستمروا حتى فتحوا بضعًا وعشرين حصنًا في بلاد كبي، منها حصن أحد سلاطينها المسمى محمد بن سليمان وأعادوا الأمير المخلوع إلى دولته. وهناك بنى محمد بللو حصنًا منيعًا في أرض (كبي) بموقع يقال له (غندوا) فانتقل إليه أمير المؤمنين ابن فودي هو وعائلته.

ثم وقعت غزوة (ألوسا) وهو موضع في بلاد (كبي) فاستشهد فيها نحو ألفين من الجماعة ونحو مائتين من العلماء والقراء. وفي ذلك يقول عبد الله:

إلهي لقلب شابه الهم والأسى ... بليل التمام والصباح إلى المسا
لفقد أخلاء مضوا في جهادهم ... (بثنشو) بعض في قراري وألوسا
هم عدتي في نصر دين محمد ... فمن كان فيهم في الجهاد تنفسا
وكلهم قار فقيه وتابع ... أولي العلم قارى الضيف في الحرب أحمسا

وناصر دين الله لازم مسجد ومجلس وعظ لا يفارق مجلسا

لمظهر دين الله عثمان كلهم بالأقوال والأفعال منه قد ائتسا

وفي عام ١٨٠٨م جهز أمير المؤمنين ابن فودي جيشًا عرمرمًا للمرة الثانية لفتح حصن (القالاوي) وأمَّر على الجيش محمد بللو الذي جعل على الجهات الشرقية من الحصن القائد المظفر نمود، وجعل على الجهات الغربية القائد الباسل علي جيدو. وكان أحد تلاميذ ابن فودي المسمى «عمر دلاج» قائدًا لطائفة من الجنود الفلانيين في بلاد كاشنه. فلما سمع بتحرك الجيش إلى حصن (قالاوي) قدم بجنوده فأحاطوا بالحصن، إحاطة السوار بالمعصم، فحاصروه شهرًا، ولم يجد العدو بدًا من التسليم، ففتح المسلمون الحصن بإذن الله وقتلوا (ينف) الطاغية، كما قتلوا صناديده وسبوا ذراريهم سنة ١٨٠٨م.

وهكذا سقطت بلاد (غوبر) و(كبي) و(زنفر) تحت سنابك جنود ابن فودي.

فإذا قارن القارئ بين الغازي الأول في صدر الإسلام وبين جهاد ابن فودي والوقائع التي دارت بينه وبين غوبر وجدها، مثلاً بمثل، كأنما يعيد التاريخ الإسلامي نفسه في نيجيريا.

لقد بدأ ابن فودي بالوعظ والإرشاد، كما بدأت الدعوة الإسلامية، وعارضه كفار غوبر، كما عارض النبي ﷺ كفار قريش، والجأوه إلى الهجرة إلى أطراف الصحراء، كما ألجأ قريش المسلمين الأولين إلى الهجرة للمدينة، وجعلوا يقطعون الطريق على من يهاجر، كما فعل قريش

للمهاجرين الأولين. ثم لما رأى الكفار تمكين المسلمين في مهجرهم استعدوا لاستئصالهم، كما استعد قريش لذلك، فالتقى الجيشان في أول وقعة في (كاوتو)، كما التقت الفئتان في أول غزوة في (بدر) فانتصر المسلمون هنا كما انتصروا هناك.

واستعد الكفار للانتقام في وقعة (ثنثو)، كما فعل قريش في غزوة (أحد) وأصيب المسلمون فيها، كما أصيبوا في الصدر الأول، ثم تم النصر الباهر في الغزوات التالية، كما تم للأولين وفتحوا حصن (قالاوي)، كما فتحوا مكة. «فما أشبه الليلة بالبارحة»..

أما ملوك هابي الذين سبق أن استنجد بهم ملك غوبر، فلم يستطيعوا أن يفيدوه بشيء إذ كان كل سلطان مشغول بما يعانيه من ناحيته، وكل ما عزم على نصرة غوبر شغله عن ذلك الفلانيون من أنصار الشيخ الموجودين في ناحيته..

على أن هؤلاء الملوك هم الذين كانوا يقومون أولاً باضطهاد الفلانيين وقتلهم ونهب أموالهم انتقامًا منهم لحليفهم ملك غوبر، فيقوم هؤلاء برد الفعل وبالدفاع عن أنفسهم فيأتيهم من الله النصر المبين، فتسقط البلاد واحدة بعد أخرى تحت أقدامهم، ويصبحوا بفضل الله أسيادها وأمراءها يقيمون فيها العدل والشرع، وينشرون بها الدين والعلم.

●●●

حملة لواء ابن فودي وعماله

أولهم سلطان آهير،

يوجد قرب مدينة (سوكوتو) بلدة (آهير) يعمرها التوارك وبقايا الصنهاجة والبرابرة، وقد ظهر فيها البركة والعلم والدين، ونجب فيها العلماء والفقهاء والأولياء. وكانت دولتهم قوية، وشوكتهم فتية، إلا أنها ذهبت منذ مدة لكثرة تنازعهم على تولية سلاطينهم وعزلهم بغير موجب شرعي، لكنها ظلت عامرة إلى أيام ابن فودي.

وكان عليهم السلطان محمد الباقر الذي سمع بأخبار ابن فودي وأتاه في بلده وبايعه ونصر دعوته وكتب إلى الآفاق يحض الناس على اتّباعه، ولقد أدركته المنية في (أكدز) عند عودته من زيارة الشيخ إلى بلاده.

وتولى بعده أخوه محمد، كما سار على نهج سلفه وسافر إلى الشيخ عثمان هو وحاشيته، وطلب من الشيخ العهد والميثاق لتأكيد المحبة والأمانة فأعطاه الشيخ ما طلب. ومن جملة ما قرر له:

«أن دعاه إلى نصرة الدين ومساعدته واتباع سنة رسوله والتزام الورع والتقوى في خاصة نفسه، وإنكار الحرام والبراءة من كل عادة رديئة وبدعة شيطانية، لأن كلاً منهما لا يشهد له كتاب ولا سنة، ولا قول عالم من علماء السنة. ثم دعاه الشيخ إلى محاربة من حارب، ومسالمة من سالم، لأنه لا يحارب إلا من حارب الله ورسوله، ولا يسالم إلا من سالم الله تعالى.

ثم قال: إن أجبتني إلى متابعة الحق والشرع فأنا وجماعتي من أوليائك وأنصارك، فاحكم بالعدل والشرع، ولا تخف في الله لومة لائم، وكل من خالفك فإني لا أزال أدعو الله أن يكفيني وإياك كل من خالف الحق. ومتى دعوت جماعتي إلى جهاد فرقة خالفتكم في الدين أو منعت حكمًا من أحكام الله أو حقًا من حقوقه فإنهم يجيبونك وينصرونك، وتكفي أمر الفتنة إن شاء الله.

ثم التفت ابن فودي إلى الوزراء والأعوان وأمرهم بالسمع والطاعة لأميرهم ومعاونته على ما تحمل.

ثم طلب منهم أن يؤمنوا السبيل ويخلوا البلاد للجماعة ومن والاهم، فأجابوا. ثم تباحث محمد بللو مع علمائهم فيما يسمع من أخبارهم وأحوال بلادهم، وأصلح منها ما يحتاج إلى الإصلاح وأرشدهم إلى الإسلام الصحيح.

هذا، وقد كتب السلطان محمد الباقر قبيل وفاته رسالة إلى سلطان المغرب ماى أحمد، يثنى فيها بالجميل على الشيخ ثناء كثيراً ويخبره بما شاهد من أحواله في الدعوة إلى الله خلال زيارته له، فكتب السلطان إلى الشيخ عثمان ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلوات الله على سيدنا محمد المصطفي الكريم وآله وأصحابه الذين انتهجوا نهجه القويم.

إلى السيد الذي فشا في الأقطار السودانية عدله، واشتهر في الآفاق المغربية ديانته وفضله، العلامة النبيه العديم في زمانه الشبيه، ذو النورين

العلم والعمل اللذين هما منتهي الأمر: السيد عثمان بن محمد بن عثمان ابن صالح الفلاني، نفع الله بعلومه القاصي والداني، سلام منا عليه ما اشتد شوقنا إليه، ورحمة من الله تغشاه حتى لا يخشى إلا الله والله أحق أن تخشاه.

وبعد، فلقد بلغنا من الثناء عليك والتعريف بأحوالك وأفعالك، ذلك ما أوجب محبتنا وتسليمنا إليك، وذلك على لسان سلطان ناحيتكم أمير الطوائف الإسلامية بساحتكم، المقر في كتابه إلينا بفضلك، وإنك ناصح لله وعليه محبتنا للسلطان محمد الباقر بن محمد العدل سلطان آهير، فإنه أخبرنا بما قمت به من الواجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي له نصب الرسول الأمين والوزير والحاجب حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وترادعت عليك وفود الإسلام أمواجًا، وصرت بلطف شمائلك إنسان العين من عين إنسان.

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ... ما لم يروا عنده آثار إحسان

وهذا من أعظم المنح وأتم النعم ولأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، فالله تعالى يجازيكم عن الأمم خيراً ويقيكم ضيراً، ويديم دولتكم محفوفة محفوظة، وبعين العناية ملحوظة، وفي حصن الله الحريز قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

والسلام منا على جنابكم الذي صار للإسلام بخلوص نصيحتكم

كالبيت المعمور، والسلام عليكم ورحمة الله. وكتب في ١٨ جماد ثانية (١٢٢٥) هـ.

لواء ابن فودي في مقاطعات كاشنه:

يوجد في مقاطعات كاشنه عدد لا يستهان به من الفلانيين، وكان يرأسهم الشيخ عمر دلاج، وهو من أصحاب الشيخ ابن فودي وتلاميذه. ولما سمع بقيام الجهاد قدم إلى ابن فودي وطلب منه اللواء فعقده له، فرجع إلى بلاده يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويدعو إلى نصرة الحق والإسلام بنصرة ابن فودي، فهاج عليه سلطان كاشنة وحرض عليه الأوباش وأتعبوه كثيرًا، ولكن الله نصر عمر دلاجا فتغلب عليه وطرده من مملكته. فلاذ بالفرار إلى مدينة (مرادي) فاحتل عمر مكانه وأنشأ جيشًا قويًا لحماية الدعوة، وقام إلى نصرة ابن فودي بكتيبة كبيرة، ساعدوا في محاضرة حصن قَالأوى حتى افتتح.

فبذلك صارت مقاطعات كاشنة تحت سيطرة ابن فودي ونفوذه وإرشاده، وهي أول إمارة خضعت لدولة سوكوتو، وعاش عمر دلاج حتى ١٨٣٥م.

لواء ابن فودي في مقاطعات زاريا:

سبق أن قلنا بأن ملك غوبر أرسل إلى حلفائه لما شعر بالهزيمة والفشل يستنجدهم ليتألبوا جميعًا على الفلانيين قبل أن يتفاقم أمرهم، وكان الملك (كادو) صاحب زوزو وأميرها ممن تجاوبوا مع غوبر.

وكان في ناحيته عالم فلاني يسمى ما لم موسى، قدم إلى ابن فودي

١٨٠٤م. وأخـذ منه اللواء ورجع إلى بلاده وأعلن الحـرب على كـادو، فنشب بينهما قتال عنيف انهزم فيه كادو فهرب مع جماعته إلى أبوجا وترك زوزو للشيخ موسى الذي صار بها أميراً تحت دولة ابن فودي الجديدة.

لواء ابن فودي في مملكتي بوشي وغمبي:

يوجد من تلاميذ ابن فودي قبل قيامه بالجهاد تلميذان إثنان هما يعقوب وأبو بايرو، نزحا إليه من بلاد بوشي ولازماه يطلبان العلم حتى قام الجهاد، ثم استأذناه للقيام بالوعظ في ناحيتهما، فأذن لهما فاتجه يعقوب إلى جهات بنوى واختط بها مدينة، كما اتجه أبو بايرو إلى بلاد غمبي وعمل هناك للدعوة أعمالاً جليلة، فحالفه النصر حتى صار بها أميراً من دون قتال أو نضال، وكلتا الإمارتين على حدود بلاد برنو الجنوبية.

لواء ابن فودي في إمارة كنو:

اتصلت دعوة ابن فودي بأهل كنو أول وهلة عندما عزم الشيخ عبد الله على الحج ومر بهم، فاجتمع له العلماء من الهوساويين والفلانيين وحالوا بينه وبين ما يريده من السفر، وطلبوا إليه أن يقرأ لهم دروسًا في تفسير القرآن، فاستجاب لهم وألف لهم كتابه «ضياء الحكام وكفاية ضعفاء السودان في تفسير آيات القرآن» ومكث معهم مدة، ثم عاد به القدر عوداً على بدء من مدينة كنو إلى إخوانه الذين تركهم في ميدان الجهاد والقتال.

وكان سلطان كنو الوالي من جملة السلاطين الذين بعث إليهم ملك غوبر بموجب التحالف والتناصر، فتحرك هذا لنجدة حليفه، ولما شعر الفلانيون بذلك أوفدوا زعيمهم المسمى ابن صبوة إلى الشيخ ليأخذ منه

اللواء، فأخذه ورجع إلى قومه داعيًا إلى الله. فقام بينه وبين سلطان كنو الوالي مناوشات فلم يستطع عليه، ولكنه صمد له في ناحية، واستعان بزعيم آخر من إخوانه الفلانيين، فوقف سلطان كنو في ناحية أخرى، فاستطاع الإثنان أن يقضيا على آخر ملوك هابي الألولية في كنو ١٨٠٧م.

ثم تنازع الإثنان على الحكم، ولما بلغ ابن فودي الخبر بعث إليهما إبنه محمد بللو الذي رأى أن من المصلحة العدول عن الإثنين حسمًا للخلاف واختيار عالم آخر من خيرة علماء زمانه في بلاد كنو وهو سليمان الجم، وأمر محمد بللو سائر الناس أن يبايعوه بالسمع والطاعة، وهكذا دخلت كنو في حكم ابن فودي.

لواء ابن فودي في أعالي بنوي:

هناك رجل فلاني يدعى مودبو آدم تلقى العلم في برنو، ولما رجع إلى بلاده واتصل بالدعوة الإصلاحية الجديدة، أسرع إلى اعتناقها، وحث قومه على المسابقة إلى قبولها ومناصرتها، فبعثوه إلى مبايعة ابن فودي، فذهب وبايع ثم رجع باللواء فجهز الجيش العظيم للدفاع، وصار يدعو القبائل الوثنية إلى الإسلام، ولم يزل يحالفه النصر حتى أسس مدينة يولا سنة ١٨٤١م. ونسبت إليه البلاد بلفظ أدماوى.

لواء ابن فودي في دوره وحطيجه

لقد عرفت مدينة دوره كإحدى مدن بلاد هوسا القديمة، ومنها نزح الذين تسلطنوا من ملوك هابي في كنو وزكزك وكاشنه وغوبر وغيرها. ولقد آذنت دولتها بالضعف والهرم قبل قيام دعوة ابن فودي فسهل على الشيخ إسحاق

أحد أصحاب ابن فودي أن يطرد سلطانها من دولته بدون كبير عناء وأن يحتل مكانه.

أما في حطيجة فقد كافح الشيخ عمر كفاحًا شديدًا لنشر الدعوة الإصلاحية فيها وجاهد وانتصر، فبعث أخاه محمد ثنبو إلى أمير المؤمنين ابن فودي ليأخذ اللواء فلم يلبث أن مات فتولى مكانه محمد ثنبو فصار بها أميرًا.

لواء ابن فودي في بلاد نوفي:

تسكن قبائل نوفي على ضفاف نهر النيجر الشمالية في الجهات المحاذية لبلاد يوربا في الضفاف الجنوبية.

وقبيلة نوفي من بقايا النوبة الذين نزحوا من أعالي مصر وسكنوا هذه البلاد من قديم الزمان. ولما علم سلطانهم بما يجري في بلاد هوسا بين الفلانيين وملوكها إنضم هو إلى سلك إخوانه الملوك، وجعل يضطهد الفلانيين الموجودين في بلاده، فاستعانوا بأمير المؤمنين فأرسل إليهم محمد بللو لإعانتهم فتم لهم ذلك فاستأمنوا.

وفي مدينة رابا إحدى عواصم نوفي وقع سلطانهم المسمى محمد في مشاكل مع رعيته فاستنجد بابن فودي، ولكن المنية عاجلته قبل وصول النجدة إليه، فتنازع اثنان على إمارة رابا فانضمت نجدة ابن فودي إلى أحدهما المسمى ماجيا الذي تغلب على منافسه وقتله ففر أنصاره إلى ناحية إلورن ليتجندوا هنالك لأخذ الثأر والانتقام، فوقع اختيار أهل رابا على ابن عم ماجيا المسمى إدريس ليكون أميرًا عليهم فتأمر.

ثم جاء من سوكوتو عالم فلاني يدعى مالم دندو، فانضم إلى ماجيا بعد تردده بين هذا وذلك فبذلك تعين ماجيا أميراً على نوفي من قبل سو كوتو.

ولكنه نقل العاصمة من رابا إلى مدينة بدا فدامت بها حتى اليوم، وتزوج مالم دندو من أسرة ماجيا، فأنجب ولدين أحدهما عثمان زاك وثانيهما محمد سابا، وتم لكليهما أن يخلف الآخر على إمارة بدا بعد وفاة أبيهما ١٨٣٢م وبقى ابن عم إدريس أميراً على مقاطعة باتيجي، وأسس مالم مالك أحد أنصار دندو مدينة لافيجي، وصار أبناؤه بها أمراء.

وتقع مدينتا باتيجي ولافيجي على ضفاف نهر النيجر الجنوبية المتاخمة لبلاد يوربا.

سقوط برنو في حكم ابن فودي:

كان بأرض برنو عدد لا بأس به من الفلانيين الذين قاسوا الاضطهاد المرير من رجال أمير برنو، فاجتمعوا في مكان واحد ليستطيعوا الدفاع عن أنفسهم.

فهاجمهم أمير برنو فردوه على أعقابه ثم اتفقوا على الهجرة من بلاده إلى مقربة من إخوانهم المجاهدين. فضاق أمير برنو بهجرتهم ذرعًا فكتب إلى ابن فودي يطلب منه أن يأمرهم بالبقاء في بلاده لأنها دار السلام ليست دار الحرب فتوسط ابن فودي بين الطرفين ثم ظهر أن هذا الأمير إنما يخادع خدعة محارب ويتحين الفرصة للهجوم الدامر فبعث بالجند إلى طائفة من هؤلاء الفلانيين لإبادتهم، ولكنهم هزموه وقتلوا قائده ووزيره، ثم أخذ في

التجند من مختلف الأجناس ليقبل بها إلى الانضمام بحلفائه فجمع الفلانيون شتاتهم من كل ناحية.

فاجتمعوا في جهة دمتروا تحت قيادة مختار الماهر.

وفي جهة غومبي تحت لواء أبو بايرو.

وفي جهة انغروا تحت قيادة عبدو «عردو».

وفي جهة كتاغم تحت إشارة إبراهيم زاك.

فصار كل قائد يعالج أمير برنو من ناحيته حتى أخرجوه من مملكته ففر إلى كانم، واستعان بمن فيها وأتوا بجنود جرارة وهجموا بها على الفلانيين فاستشهد منهم طائفة وقتلوا مختار وعبدو وشتتوا الباقين وأرجعوا الأمير إلى حصنه. ثم أعاد الفلانيون تنظيم شملهم تحت قيادة إبراهيم زاك الذي هاجم برنو مرة أخرى وأخرج الأمير من الحصن أيضًا ثم فر إلى الحاج أمين الكانمي ثانيًا.

ومن هنا بدأ الحاج أمين يراسل ابن فودي برسائل ويطالبه بدلائل في سبب قيامه بهذا الجهاد، وكان في الوقت نفسه يجند الجنود من كانم وباغرمي، فتم له بعد ذلك إخراج إبراهيم زاك من الحصن وإجلاء الفلانيين من برنو.

وآل إلى أحفاده حكم برنو إلى اليوم وصاروا يتلقبون بالشيخ بدلاً من الماي.

بين ابن فودي والكانمي:

لقد قدمنا ما فيه الكفاية لتعريف الكانمي بين مشاهير علماء البلاد، أما

ما جرى بينه وبين ابن فودي فقد بعث الكانمي إلى ابن فودي رسائل عديدة سجلها محمد بللو في «إنفاق الميسور»، ونحن نورد هنا واحدة منها لتكون نموذجًا لتلك المناظرة الفقهية التي تدل على المهارة وعمق الفهم من الجانبين ونص رسالة الكانمي:

«الحمد لله فاتح أبواب الهداية ومانح أسباب السعادة، والصلاة والسلام على من بُعث بالحنيفية السمحة وعلى آله وأصحابه الذين هدوا وأوضحوا شرعه. من المتعفر بتراب الذنوب المتدثر بجلباب العيوب العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي، إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم. السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور إنه لما ساقتني المقادير لهذا الإقليم وجدت نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألت عن السبب فقيل بغي وقيل سنة. وتحيرنا في الأمر فكتبت لإخوانكم المجاورين لنا وثيقة طلبت منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل فضلاً عن عالم وفضلاً عن مجدّد، وعدوا فيه أسماء كتب لنا إطلاع على بعضها ولكن لم نفهم منها ما فهموه. وبينما نحن في حيرة التردد هجم بعضهم على دار الإمارة ونزل المهاجرون لنا قريبًا منا، فكاتبناهم ثانيًا وناشدناهم الله والإسلام أن يكفوا عنا شرهم فامتنعوا وصالوا علينا، فقمنا مدافعين عن أنفسنا متبرئين إلى الله من سوء صنيعهم حين ضاقت علينا الأرض ولم نجد مقامًا ولا مجالاً ووقع منا ما وقع، وحين وجدنا راحة وفشا هذا، والله أعلم بالمستقبل، رأينا المكاتبة وإن لم تنجع كانت أحسن من السكوت.

فاعلموا أن العاقل يتلقى الكلام بقبول ليفهمه فيجيب جوابًا مستقيمًا فأخبرونا عن قتالكم لنا وإسترقاقكم أحرارنا.

إن قلتم فعلنا ذلكم بكم لكفركم فإنا برآء من الكفر بعيدون عن ساحته فإذا كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومعرفة الله وصوم رمضان وعمارة المسجد كفرًا فما الإسلام؟

فهذه الأبنية التي أقمتم بها الجمعة كنائس أم بيع أم بيوت نيران؟ وإن لم تكن من شعائر الإسلام فلم صليتم بها حين ملكتم؟ هل ذلك إلا كلام متناقض؟؟ ومن أعظم حججكم على تكفير عامة المؤمنين ركوب الأمراء لبعض المواطن قصداً للصدقة بها وكشف رؤوس الحرائر وأخذ الرشوة وأكل مال اليتيم والجور في الحكم وهذه الخمسة لا تبيح لكم هذا العمل.

أما ركوب الأمراء فبدعة شنيعة مذمومة وجب النهي عنها والإنكار على فاعلها، لكن لا يكفر فاعلها إذ ليس أحد منهم يدعي أن لها تأثيراً أو يقصد بذلك إشراكا بل قصارى دعواهم لجهلهم.

أن الصدقة في هذه المواضع أحسن من غيرها، ومن مارس كتب الفقه ووقف على كل آراء الأئمة في باب الحج حين تكلم على النهي عن الهدي للقبور والذبح عندها، علم مصداق ما قلناه وهذه دمياط مدينة عظيمة من مدائن الإسلام وهي بين مصر والشام، وذلك موضع العلم والإسلام، وبأرضها شجرة تفعل بها العامة مثل فعل الأعاجم ولم يقم أحد من العلماء لقتالهم ولا قال أحد بكفرهم.

وأما كشف الرأس فحرام ورد القرآن بالنهي عنه، ولكن لا نكفر فاعلته لأن التكذيب يؤدى إلى الكفر، وأما عدم الفعل مع التصديق فمعصية تجب

التوبة على الفور منها. ألا ترى أن الحرة إذا صلت مكشوفة الرأس وخرج الوقت لا إعادة عليها عند القائل به كما هو معلوم في كتب الفقه، وكيف تصح الصلاة من كافرة؟

وكذا أخذ الرشوة وأخذ مال اليتيم والجور في الحكم وكل ذلك من الكبائر التي نهي الله عنها لكن لا يكفر أحد بعد أن استقر إيمانه بذنب، فلو أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر واعتزلتم الناس حين لم ينتهوا لكان أحسن من هذا القتل، إذ الأمر والنهي متوقف على شروط:

منها ألا يؤدى إلى ما هو أعظم منه، وهذا نهيكم قد ورطكم وأدخل عليكم وعلى المسلمين ضررًا دنيويًا وأخرويًا. أليس الخروج على الملك بعد انعقاد البيعة حرامًا عند جميع أهل السنة؟ وإن طرأ منه فسق؟ وتلك المسألة أوضح من شمس الظهيرة. ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فما سرقلة التأمل أكثر من أن يحيط بها نطاق البيان..

سلمنا تسليمًا جدليًا إن تلك الأفعال مكفرة صاحبها فكيف يسري لغيره وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] إلى غير ذلك من الآى؟...

سلمنا تسليمًا جدليًا أن الكفر يسرى للغير، لكن أيلزم من ذلك إبطال الشريعة وكفر جميع الأمة والعياذ بالله تعالى؟! إذ ما من زمن إلا وفيه في جميع البلدان من الفسق والمعاصي ما لا ينحصر كثرة.. فهذه مصر مثل برنو وأعظم منها، وكذلك الشام، وجميع مدن الإسلام فيهن الرشوة

والجور وأكل مال اليتيم والظلم والبدع من زمن بني أمية إلى يومنا هذا، ولا يخلو زمن ولا بلد من نصيب من البدع والمعاصي، فلو كفر الجميع بطلت تآليفهم فكيف تستدلون بأقوالهم وهم كفرة على ما يقتضيه قولكم؟ والعياذ بالله من الخبط في الدين ومن اتباع النظر الفاسد، نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق، وذلك إهانتكم للكتب برميها في الطرق وفي المواضع المستقذرة وفيها اسم الله تعالى، وتعلموا أن من ألقى آية من القرآن في موضع مستقذر كفر والعياذ بالله! وكذلك رأينا من بعضكم من يعاهدون ويؤكدون الأيمان ثم ينقضونها بعد توكيدها بقتل الرجال وإسترقاق النساء والأبناء.

فيا عجبًا منكم بعد أن كانت لكم التقدمة في العلم والدين أحببتم الملك ورغبتم فيه وسولت لكم نفوسكم وتخيلتم ما تخيلتم، واستدللتم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً، لا سيما وقد سمعنا من سير الشيخ عثمان بن فودي ورأينا من تآليفه ما يخالف فعلكم، فإن كان هذا الأمر صدر من فعله فلا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد كنا ظننا به جميلاً والآن كما قال القائل: إنا نحب الشيخ والحق ما اتفقا فإذا ما اختلفا كان الحق أولى أعاذنا الله من أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم:

﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] أو أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وإليك نص جواب محمد بللو بن عثمان بن فودي:

الحمد لله ذي الحجة البالغة والكلم النافذة، الصادعة بالحق الماحقة للباطل الدامغة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بالمعروف ونهي عن المنكر والبغي، شهادة قاطعة شموسها بازغة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وينصره على ذوى الأهواء الزائفة ﷺ وعلى آله وأصحابه ذوي العلوم البارعة النافعة السابغة.

من العبد الفقير لرحمة ربه القدير محمد بللو نجل أمير المؤمنين عثمان ابن فودي، وفقه الله لرضاه وأذاقه حلاوة تقواه.

أما بعد، فقد وصلت إلينا رسالة من شيخ كاغمي لستٍّ خلون من شعبان، إنه يسأل عن سبب قتال أهل الجماعة لأهل البلدان واسترقاق أحرارهم، وذكر فيها أنه كاتب في ذلك بعض المجاورين لهم من الفلانيين فأجابوه بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل فضلاً عن عالم فضلاً عن مجدد، وذكروا له في الجواب كتبًا سموها له إطلاع على بعضها لكنه لم يفهم منها ما فهموه إلى آخر ما قال. . وفهمنا من مضمون فحوى خطابه بل من صريح كلامه أنه استند بما سمع من أولئك في تضليل سائر الجماعة وعلمائهم، وتوصل بذلك إلى التشنيع عليهم مع أنه لم يدرك حقيقة الأمر ولم يقف على كنهه، وإنما تبلغه أخبار من لا يحسن أداءها.

فعلمنا أنه إما جاهل أو معاند إذ لو كان من أهل المعرفة ما ساغ له أن يحمل الكل على الضلال لما يسمع من جواب صدر من بعض الأتباع الذين لم يمارسوا العلوم، بل يجتهد في طلب الحق ويكاتب جميع من يظن به العلم والدين منهم حتى إذا استقصى جميع ما عندهم من الأجوبة والمقالات

فحينئذ يضعها على ميزان لسان العلم الذي عنده فإن قبله وظهر أنه حق اتبعه وإلا رجع إلى التأويل والتماس المخرج ما أمكن ووقف عن العمل به ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ثم إنه إذا تعذر التأويل فحينئذ يقوم إلى إرشادهم بما يغلب على ظنه أنه يصلحهم بالقول والمناظرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن تعسر بالقول فشأنه بهم.

أما قولنا: أو معاند، فهو أنه يعرف الحق وطرقه وأن جواب هؤلاء لا يسوغ تضليل الجماعة كلها حتى يسري في تعيينه إلى إمامه الذي انتشرت في الآفاق محاسن سيرته، وإنما حمله على ذلك التعصب والحمية الجاهلية عياذًا بالله.

فنقول وبالله التوفيق: لولا ما قال المولى جل وعلا: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ..﴾ [النساء: ٨٦].

وما قاله رسوله المصطفى، فيما رواه البيهقي وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «إن للكتاب حق رد الجواب كرد السلام» لما جاوبناه ببنت شفة بل نخيله بينه وبين أمثاله يتطاولون كما قال القائل:

فذاك كالعير لا تسعى تناظره ... دع الحمير على أمثالها تصل

واعلم أيها الكاتمي أولاً أنا ما حاربنا الناس بما أجابوك أصلاً وإنما حاربناهم دفعًا عن أنفسنا وذريتنا وأهلينا لما آذونا واستفزونا وطلبوا منا أن نعود إلى ما لا يحل لنا، وقد بين الشيخ الحق ورأيناه واتبعناه.

فأغروا بنا سفاءهم يؤذوننا وينهبون أموالنا ويقطعون طرقنا ونحن نجتهد في إصلاح ديننا وننشر ما عندنا من العلم وإرشاد من وصل إلينا، وهذا دأبنا

ودأبهم. فلما رأونا أنا لا ننتهي عما نحن فيه ولا نزداد إلا حسنًا وابتهاجًا ولا يزال عوام الناس يدخلون في دين الله أفواجًا غاظهم ذلك، فأجمعوا كيدهم على نصب القتال بيننا وبينهم، ولا يشكون أن الدولة لهم لما يرون من ضعفنا عن المقاتلة فلم يرعنا إلا إنذار من أمير غوبر بثلاثة أمور:

أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما عليه آباؤه وأجداده، وألا يتعمم أحد بعد اليوم ولا تضرب إمرأة بخمارها على جيبها.

وهذا إنذاره في الأسواق.. كل ذلك سعي منه في مكيدتنا فكفانا الله شره وضيره وصرف عنا كيده ومكره فأتاح الله له الموت بعد ذلك عن قريب. ولما ولي ابنه ينف شمر عن ساق الجد والاجتهاد على ذلك حتى غزا قرية عظيمة من قرى الإسلام على حين غفلة من أهلها، فقتلوا ما شاء الله من فقهائها وقرائها في نهار رمضان وهم صائمون ونهبوا أموالهم وأسروا ذراريهم وجعلوا يفترشون الكتب والمصاحف، ويتحطبون الألواح ويوقدون بها ويستهزئون بأهل الإسلام ويقولون لهم إيتونا بما تعدوننا إن كنتم صادقين. ثم جعلوا يعرضون لقرية الشيخ حتى أرسل أميرهم إلى الشيخ أن ينحاز بأهله وإخوانه وأبنائه يريد أن يهجم على القرية فأبى عليه الشيخ إلا أن يهاجر بجماعته فهاجر بها إلى موضع يقال له غد.

فلما وصل بها جعل الناس ممن آثروا الإسلام يهاجرون إليه أرسالاً، والكفرة تتعرض لهم وتقطع عليهم سبلهم بأمر أميرهم، ثم جعل بعد ذلك يرسل إلينا بالسرايا والغارات، والشيخ يكاتبهم فأبوا عليه مع أن الأمير يتأهب إلينا فلما وصل إلينا هزمه الله وشتت شمله فنجا بنفسه، فلما رجع

إلى داره أرسل إلى إخوانه أمير كاشنه وأمير كنو وأمير زكزك وأمير دوره وأمير أهير ينذرهم بأنه أهمل نويرة شبت في بلده حتى انتشرت فوق طاقته وغلبته آن يطفئها حتى أحرقته فليحذر كل أن يصاب في بلدته بمثل ما أصيب هو به.

فقام كل واحد منهم على من ينتسبون إلى الشيخ يقتل ويأسر ففروا في البلاد عباديد يأوي بعضهم إلى بعض حتى صاروا جماعات فجعلوا يدافعون عن أنفسهم حتى صار الأمر إلى ما صار إليه في تلك البلاد.

هذا ما نعرف عندنا في بلادنا حقيقة، أما في بلادكم فليس عندنا علم ما أوقد المحاربة فيها، إلا أنه قدم علينا في بعض الأعوام الماضية رجل يقال له آدم الحاج، وزعم أنه أرسله أمير برنو أحمد بن على إلى الشيخ يسأله عن سبب هذا الأمر وأن يمنع الشيخ الفلانيين من الهجرة من بلده وأنه أمير المؤمنين، فأمرني الشيخ بكتب الرسالة فكتبت إليه ما هو السبب وبينت له أحوال أمراء هوسا أنهم كفار وإن مظاهرتهم من مسلم ارتداد، وكتبت إلى الفلانيين الذين في بلده ما يقتضي المواصلة بينهم وبين أمير برنو ويوجب الموافقة ويمنع المخالفة. فلما رحل من عندنا الرسول ومضى لسبيله راجعًا لم نلبث إلا قليلاً حتى بلغني أنه بلغ وإن أمير برنو قتله في معسكره في توجهه إلى ابن عبدو، والله أعلم بحقيقة الحال.

ثم نرجع الآن إلى الإجابة عما في تشنعك علينا مع ما دسست في ذلك من مغالطتكم وقد سبق في قلبك ما سبق فأنقضها عروة، فلله الحمد في الآخرة والأولى. أما قولك فأخبروني عن قتالكم لنا واسترقاق أحرارنا... إلى كلام متناقض.. فالجواب والله الموفق للصواب.

إعلم أن سبب قتالنا لكم فلأنكم واليتم كفار هوسا دوننا بغير تقية منهم وتعلمون أن من والى الكفار دون المؤمنين بغير تقية فهو مثلهم كتابًا وسنة وإجماعًا. ولقيامكم أيضًا على إذاية المجاورين لكم من الجماعة حتى ألجأتموهم إلى الهجرة وبدأتموهم بالمقاتلة تعصبًا لملوك هوسا ونصرة لهم ولا يخفي أنه ما قمتم لمظاهرتهم على المؤمنين إلا لرضاكم بدينهم، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر.

وتعلمون على هذا أن معرفة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وعمارة المساجد لا يمنع من قتالهم ولا ينفعكم في الدنيا والآخرة لثبوت ارتدادكم إن كان سبق لكم الإسلام الصحيح، فإذا لم يكن موالاة في الدين يصار إليه في العقليات ولا الشرعيات حينئذ فما الدين؟

وأما قولك «واسترقاقكم أحرارنا» فلما علم من الخلاف في استرقاق المرتدين انظر أجوبة المغيلي لأسئلة أسكيا الحاج محمد، و«النوازل» للبرزلي تجد ذلك.

وأما قولك من «أعظم حججكم إليَّ ولا قال أحد بكفرهم» فلا نسلم دعواك إنهم لا يريدون بذلك إشراكًا فإذا لم يكن الذبح للأحجار والأشجار كفرًا أو شركًا ضرورة فما الشرك؟؟

وأما قولك: «ومن مارس كتب الفقه.. إلى آخر الكلام» فجهل منك صريح فذلك إنما هو لمن أهدى للفقراء والخدم لحضرة القبور صدقة عليهم أو لأصحاب القبور لتعود عليهم بركاتهم، لا لمن قصد الذبح للقبر نفسه، فإذا لم يكن الذبح للقبور نفسها إشراكًا فما الإشراك؟

وأما قولك «هذه دمياط . . إلى آخر الكلام» فلا نسلم أن العلماء لم يتعرضوا لقتالهم ولم يقولوا بكفرهم، فهذا عبد الرحمن بن يوسف الشريف تعرض للشجرة التي بسلجماسة فقطعها وقال إنها مثل ذات أنواط، وتعلم أن ذات أنواط من الأوثان الجاهلية.

وأما قولك: «وأما كشف الرأس. . .»

فلا نسلم أن أحدًا قال بالتكفير بالمعاصي، فإنما ذلك مغالطة منك ومشاغبة وزور وبهتان علينا فالله حسيبك.

وأما قولك: «فلو أمرتم. . . إلى أخرويا. . .» فلا نسلم أنا جاوزنا الحدود في شروط الأمر والنهي، بل وقفنا عند الشرط كما ينبغي. فالمقاتلة الحادثة فيما بين ذلك إنما هو من اعتدائكم علينا فإنا لم نتعرض لنهي الملوك عن عوائدهم المخالفة للشرع فهم الذين بدأونا بالنهي عن الدين وألجأونا إلى الهجرة وبدؤونا بالمقاتلة، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

أما قولك: «أدخل عليك وعلى المسلمين. . الخ». فلا نسلم أن ذلك أدخل ضررًا فإنه معلوم عندنا بالضرورة إنه إنما أدخل خيرًا كثيرًا علينا وعلى المسلمين.

وأورثهم أرضكم وديياركم وأموالكم وكفاهم شركم وكيدكم، وهم اليوم في صلاح دين ودنيا والحمد لله على ذلك.

وأما قولك: «سلمنا إلى النظر الفاسد. .»

فكلام زور وبهتان ومشاغبة. فمن قال منا بالتكفير بالمعاصي يلتزمه ما عددت عليه. هذه جرأة منكم وتسلط في أعراض المسلمين ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وأما قولك: «رأينا منكم الكلام.. إلى الإبقاء..» فمشاغبة ومغالطة وتعلم أن هذه الأفعال لا يمكن أن تكون من الأخيار إنما تكون -إن كانت- من السفهاء منا، والنبي ﷺ يقول: «**الجهاد ماض لا ينقضه جور من جار**».

وأما قولك: «يا عجبًا إلى فعلكم..» فكلام مختلط أو كلام من تخبطه الشيطان من المس، تشهد لنا بالخير ثم تشهد لنا بالشر، كفى بهذا خبالاً وخبطًا وكيف تقول إننا أحببنا الملك وتعلم أن الحب من أفعال القلوب.. فهل شققت قلوبنا ورأيت ما فيها أم اطلعت على الغيب؟ كفى بهذا منك زورًا وكذبًا وهكذا قولك في الشيخ عثمان بن فودي شهدت له بالخير ثم ألممت إليه الشر خبطًا منك وخبالاً في قلبك كفى بهذا منك نقيصة.

فاعلم يا كانمي أننا برآء من جميع ما رميتنا به، راجعون إلى الله تعالى مما ألمت به إلينا، والله المستعان على ما تصفون. والسلام.

هذه واحدة من عشرات الرسائل التي دارت بين الكانمي وآل فودي.

فما هي إلا صورة مصغرة مما يتمتع به كلا الرجلين في المزية العلمية. بل هي نموذج مما عليه علماؤنا الأقدمون من رسوخ القدم في العلوم والمناظرة والجدل.

لواء ابن فودي في بلاد يوربا[1]:

لقد علمت فيما مضى أن حملة لواء ابن فودي هم أصحابه الذين خرجوا من ديارهم إلى مبايعة الشيخ واستئذانه في الجهاد بناحيتهم، ولم يكن الشيخ يبعثهم من عنده أو يوزعهم بإرادته ليسلبوا ملك البلاد من أهلها كما يتوهم البعض، ولكن الله أراد ذلك وهيأ له الأسباب. ويوجد في بلاد يوربا بذلك العهد أقليات إسلامية يعيشون ضعفاء في أواسط الكفار أو يسكنون مستقلين في أحياء خاصة، ولكنهم لم يتصلوا بدعوة ابن فودي إتصالاً مباشراً ولم يعلموا كيف يأخذون منه اللواء ليقوموا بالجهاد.

وكان من جملة أصدقاء الشيخ ابن فودي وأصحابه رجل فلاني من جهات سوكوتو، وهو من أهل الصلاح والتقوى يدعى صالح بن محمد ابن جنتا، ولكنه اشتهر بلقب عالم الذي كان يطلقه عليه ابن فودي دائمًا، ولما تفرس أن له مستقبلاً باهراً ونجمًا لامعًا في الدعوة إلى الله جنوب نهر النيجر أشار له بالتوجه إلى تلك الناحية.

فعمل بالإشارة فاجتاز النهر حتى أتى بلاد برغو ونزل ضيفًا على ملك بوسا فأكرم نزله وجعل يطعمه العصيدة البيضاء الناعمة المصنوعة من الجزر الكبير إذكان ذلك أفضل طعام يقدمونه للضيف العزيز عندهم، فأثقل جسم الشيخ عن بعض أوراده ونوافله ولما تكرر منه ذلك لم يجد بدًا من الخروج من بوسا إلى بلاد يوربا فنزل في عاصمتها «عويولي». وكان قد أخبر الكهنة ملك يوربا أن سينزل في أرضه عالم سيكون بقاؤه فيها سببًا لذهاب ملكه

(١) يجب الاهتمام بهذا الموضوع إذ يتعلق به كثير من الحوادث التاريخية القديمة والحديثة في بلاد يوربا وما حولها.

كما أخبروا فرعون بمثل ذلك قبل ولادة موسى عليه السلام، ولما نزل وأحس به الملك إحتال على إخراجه من بلاده وزوده بعبيد وإماء وأموال كثيرة.

وفي رواية أن الملك حاول إغتياله ولكن الله سلم الشيخ فنجا من الشر والكيد. فخرج إلى مدينة إسين ونزل بمسجد أوجالا، ومكث بها مدة ثم خرج إلى أبومشو ثم إلى إيكوى ثم إلى كوهو فمكث بها ثلاث سنوات، ومنها انتشر صيته في الآفاق. وكان بجهات إلورن بعض الفلانيين رعاة البقر الذين اتصلوا به وصاروا يزورونه الفينة بعد الفينة وهو أيضًا يزورهم أحيانًا.

افنجا اللاجىء الحربي في ألورن:

حدث أن التجأ إلى قرية إلورن رجل من قواد الملك يوربا يدعى أفنجا ابن بنت الملك، التجأ إلى القرية بعد فشله في سرية أو يري التي بعثه الملك إليها ليلقى بها حتفه جزاء مناوءته له. وكان من عادة يوربا أن ينتحروا إذا لم يحرزوا النصر في حروبهم حيث يكون ذلك عارًا أبديًا عليهم وعلى أسرتهم ولكنهم يغسلون هذا العار بالانتحار، ولما إنهزم أفنجا تلك الهزيمة المنكرة وكان المفروض أن ينتحر حسب التقاليد فإذا به ينكل من الانتحار ويلوذ بالفرار إلى قرية إلورن حيث يخفي مصيره على أهل العاصمة.

وبعد الاستراحة والاطمئنان صار أفنجا يحلم باسترجاع منصبه السابق في القيادة الحربية، ويتمنى أن يؤلف جيشًا قويًا خارج المملكة لينتقم به من عدوه الملك الذي عرضه للموت على حساب الوطن.

ولم يزل كذلك حتى سمع بخبر هذا العالم، ورجا أن يكسب صداقته فزاره في مكانه ورجاه أن ينزل إلى إخوانه الفلانيين البقارين بجواره في إلورن.

فوافق ذلك رغبة الفلانيين والهوساويين والبرناويين المتوزعين في أحياء صغيرة قرب إلورن.

فانتقل إليهم الشيخ بتاريخ ١٢٣٠هـ ولقي من هؤلاء المسلمين حفاوة بالغة واحترامًا عظيمًا، وأخذ الناس يقصدونه من كل صوب وأتى إليه علماء ربوة السنة وتتلمذوا له، ونزل إليه أهل قرية أبج وهم من البرابرة وتمسكوا بذيوله واستفادوا بعلمه. واستقدم الشيخ أهله وأولاده وأصحابه من بلاد سوكوتو وبلاد هوسا فكثر الناس حوله فاستطاع أفنجا أن يؤلف من هؤلاء الوافدين إلى جوار الشيخ جيشًا كبيرًا، وعقد الشيخ له اللواء فقام إلى القرى التي كانت تهدد سلامته وتشن الغارات عليه في فترات من الزمن ففتحها وأمن من الطوارق الذين يطرقون البلد ويأسرون أهله. ولما قوي عضد أفنجا أخذ يرسل الغارات إلى عاصمة بلاده «عويولي» يريد أن يقلم أظافر الملك الآفن إنتقامًا لفعلته له وأن يكسر شوكته ليبقى هو صاحب النفوذ الوحيد بعد ذلك في بلاد يوربا.

فجعلت الغارات المغيرات تهاجم العاصمة في كل عشية وضحاها، ولما ضاقت الأرض برحبها على أهل العاصمة انتقلوا من مكانهم، ونزلوا حيث عرف بهم اليوم حيث تمنع الغابات الكثيفة شيئًا من تلك الغارات وحيث يكونون قريبين من أواسط يوربا.

فضعفت بذلك شوكة ملك يوربا وتوهنت قوته.

ولما علم المسلمون المجاورون لهذه الناحية أن الأمن والسلام قد استقر في قرية إلورن، صاروا يهاجرون من نير ملكهم الكافر إلى إلورن، حيث يتمكنون من أداء دينهم على الوجه المرضي، فانتظمت الحضارة في مدينة إلورن وتضاعف عدد السكان.

وحيث لم تكن قرية إلورن قبل نزول العالم فيها إلا بلدة صغيرة وليس بها رئيس يحمل لقبًا من ألقاب الأقيال، ولا ملكًا يلبس تاجًا من الخرزات المنظومة كما لا يمتاز بزي من الأزياء الرسمية حسب عادتهم في بلاد يوربا.

ولم يكن لجوء أفنجا إليها إلا إضطراراً لا يحمل صفة حاكم رسمي من قبل الآفن كما يتوهمه البعض، إتجهت أنظار الناس إلى هذا العالم أن يكون حاكمًا أو رئيسًا ولكنه أبى واكتفي بالمشيخة. ولقد ألقى الجميع له مقاليد الأمور ولم ينازعه أحد النفوذ ولكنه لم يكترث بالمظهر الدنيوي بل إهتم بالوعظ والإرشاد والعمل لإنشاء بلدة إسلامية في هذه الناحية، يأوي إليها كل من أراد أن يعبد الله خالصًا مخلصًا في راحة واطمئنان وفي حرية واستقلال.

وكانت البلدة مقسومة إلى أربعة أحياء صغار قبل نزول العالم:

أ- حي الفلانيين الذين أضافوا الشيخ عندهم وزعيمهم رجل يسمى أولوفادي.

ب- وحي الهوساويين التجار الذين هم شبه رحَّل، يكثرون أحيانًا ويقلون أحيانًا ورئيسهم يدعى باكو.

ج- وحي المسلمين في ربوة السنة وهم مزيج من اليوربا والبرابرة، وقائدهم يسمى سولا بيرو.

د- وحي اليرباويين الكفار وزعيمهم الأول ايلا وهو فلاح صائد، ولما نزل أفنجا تنازل له عن الزعامة.

هكذا كانوا قبل نزول العالم وبعده إلى أن توفي عام ١٢٣٦، وذلك بعد ستة أعوام من نزوله وبعد أن انتظمت المدينة واستقر بها الأمن واستتب فيها السلام. وزاد عدد سكانها الذين وفدوا إليها من كل صوب سواء من بلاد هوسا أو من بلاد يوربا وشكل المسلمون الأغلبية الساحقة لسكان المدينة.

قيام الحكومة الإسلامية في بلاد يوربا:

إتفق رؤساء الأحياء الثلاثة الأولى على تعيين أمير مسلم على البلد، كما اتفقوا بالأغلبية على مبايعة عبد السلام أكبر أولاد العالم أميراً، حيث كان أبوه سبباً لانتظام البلد واستتباب الأمن والسلام.

تمت البيعة لعبد السلام أميراً أو سلطاناً على المسلمين في بلدة إلورن وما حولها على الرغم من كراهية أفنجا وجماعته، ولكنهم لم يجدوا بداً من التسليم للرأى العام فازداد نطاق هجرة المسلمين إلى إلورن من جميع الأرجاء المجاورة للانضواء تحت إمارة إسلامية جديدة، وللدخول في بيعة أول إمام وأمير للمسلمين في بلاد يوربا. فأصبحت البلدة حصناً منيعاً لصوت القرآن ومعقلاً أميناً لدعاة الإسلام فظهرت بها منارة عالية يشع منها ضوء الإيمان إلى كافة الأنحاء والأرجاء، وبالتالي تمركزت بها الثقافة العربية الإسلامية حيث استقدم إليها أمراؤها العلماء والفقهاء من بلاد هوسا ونوفي وغيرها، وأسسوا بها الكليات العالية لجميع فنون الفقه والأدب واللغة العربية والشريعة الإسلامية وتخرج منها فحول وجهابذة نشروا الثقافة الإسلامية في بلاد يوربا وكافحوا فيها الأمية والجهالة. ولما كانت الوثنية

على طرفي نقيض مع الإسلام كالماء والنار يصعب أن يجتمعا في إناء واحد، صار من الطبيعي أن يقع الخلاف بين أفنجا الكافر الخارج على الإمام الذي تمت له البيعة وبين عبد السلام المبايع لإقامة دولة الإسلام ولجمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم على كلمة الحق والعدل.

استمر الخلاف بينهما حتى انتهي بقيام المناوشات التي وقع فيها أفنجا صريعًا ميتًا خاسر الدنيا والآخرة.

وكان قد أرسل أفنجا إلى قبائل يوربا المجاورين يستنجدهم على المسلمين ولم تصله النجدة حتى انهزم، ولما علم أنصاره الكفار بمصيره تعربشوا من نحو أربعين مدينة يقودهم حليفه صاحب مدينة إيكوي فأقبلوا إلى إلورن ليستأصلوا شأفة المسلمين، فبعث الأمير عبد السلام إلى سوكوتو يطلب منهم اللواء والمدد بالجيش، فأرسل له ذلك كله من طرف الأمير خليل بن عبد الله من مدينة غندو.

وهكذا بدأ الجهاد في بلاد يوربا ودام القتال بين الفلانيين كما يسمونهم وبين اليورباويين سجالاً طيلة أربعين سنة، من أيام الأمير الأول عبد السلام ابن عالم إلى أيام الأمير الرابع على بن شئث بن عالم.

وقد تم للمسلمين فتح القرى والمدن التي تجاور إلورن ودخلت أكثر بلاد يوربا في المعاهدة معها، ثم أقبل أهل مدينة إبادن وإيشا وتعسكروا في مدينة أوفا. فأقبلت جيوش المسلمين يقودهم قائد هوساوي يدعى أبو بكر كراره وحاصر مدينة أوفا من الناحية الشمالية لمدة سبعة عشر عامًا قبل فتحها فانهزم المتكتلون بها ورجعوا إلى بلادهم خائبين سنة ١٨٨٦، وفي ذلك يقول الشيخ محمد ثاني بن أبي بكر (بوبي) أحد علماء إلورن وأدبائها قال قصيدة نقتطف منها مطلعها:

الحمد لله مهدي هذه النعم ... على جماعة شيخ عالم علم
ثم الصلاة على خير الورى وعلى ... آل وصحب واتباع ذوي حكم
لما تحزب أهل الكفر كلهم ... وأهل بادن لقد بادوا على اسمهم
وأهل أوفا لقد فاوا بنقضهم ... عهد الأمانة في فعل وفي كلم
قال الأمير فإن الحول ليس لنا ... إلا إليك إلهي أنت ذو كرم
أعني الأمير عليا ذاك مقصدنا ... لأنه بيديه فتح مصرهم
قد أنجز الله وعداً كان واعدنا ... تفرقوا ثم خلوا جل مالهم
نساؤهم مع أولاد صغارهم ... صاروا أرقاء في ملك وفي خدم

وشمر المسلمون عن ساعد جدهم وعزموا على مواصلة فتوحاتهم صوب الجنوب حتى المحيط، وصاروا يرسلون إلى ملوك يوربا يدعونهم بدعاية الإسلام وبالدخول في المسلمين أو الدخول في ذمة المسلمين أو الاستعداد للقتال حسب شروط الجهاد في الإسلام.

فاجتمعت القبائل اليوروباوية على محاربة المسلمين الفلانيين والهوساويين، واستعانوا بمختلف القبائل والعشائر، فقامت بين الطرفين حروب دامية، حتى مَلك الانكليز البلاد وأوقفوا القتال واصطنعوا الحدود فسكنت الزماجر.

الإسلام في الداهومي:

تقع بلاد الداهومي على التخوم الغربية من نيجيريا تستغرق بلاد يوربا ثلث بلدانها، وإنما وقعت في الداهومي بعد الاستعمار الفرنسي بموجب

التحديدات السياسية المفروضة لذلك يكون تاريخ الإسلام فيه جزءاً مكملاً لتاريخ الإسلام ببلاد يوربا. ويمكن تقسيم قطر الداهومي إلى ثلاثة أقسام: قسمان منها في الجنوب الساحلي، يسكن في القسم الأول قبائل يوربا، وأشهر بلادهم كيتو وساكينتي وسافي وأجاشي وأوهري بغالبية السكان المسلمين قليل من الوثنيين والمسيحيين.

وتاريخ الإسلام في هذه الجهات قديم كقدمه في سائر يوربا القديمة وللعلماء والحجاج في نفوس المسلمين بها احترام بالغ ومكانة مرموقة.

ويسكن بالقسم الثاني قبائل اناغو وايفون وابومي، وهم في الأصل كفار وقد أسلم كثير منهم وتنصر الآخرون.

وفي مدينة ويداه وأجاشي نزل العبيد المتحررون من أيدي البرتغاليين من القرن الثامن عشر، وكان منهم عدد من كانوا مسلمين قبل استعبادهم وتمسكوا به حتى تحرروا. أما المقاطعات الشمالية التي يسكنها قبائل برغو ودندى من بقايا أجناس البرابرة أكثرهم مسلمون، وقد ظهر فيهم علماء كثيرون في جهات باراكو وزوغو وكندى. ويعود تاريخ الإسلام بهذا القسم إلى عهد الأمير المجاهد أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي بدأ جهاده من مركز المرابطين قرب السنغال وما زال يواصل جهاده صوب الشرق الجنوبي يفتح البلاد وينشر فيها الإسلام.

ويقال أنه لم يترك مدينة آهلة بالسكان من بلاد السنغال إلى حدود الكونغو إلا فتحها وصيرها بلاداً إسلامية وعين عليها أميراً مسلمًا وإن كان المعروف من حالة السودان سرعة إرتدادهم إلى الكفر بعد الإيمان، وانمحاء آثار الإسلام بعد ثبوته من جراء ضربات الكفر عليها.

ومما يدل على قدم الإسلام في شمال الداهومي وقوع بلاد غاو، والتي هي عاصمة مملكة سنغاي في حكومة أسكيا محمد الأول قرب مدينة زوغو عاصمة بلاد الدندى التي هي بشمال الداهومي اليوم.

ويقال ان الشيخ عثمان بن فودي قد جال في بعض أطراف شمال الداهومي ضمن جولاته في بلاد كبي لنشر الدعوة الإسلامية بها.

كما يوجد في كتابات الشيخ عبد الله بن فودي في «تزيين الورقات» ما يدل على إتصال دعوتهم بتلك النواحى.

الإسلام في بلاد بني:

لا شك في أن جزءا من بلاد بني قد شم رائحة الإسلام منذ عهد قديم لأنها من المدن القديمة، التي كانت تحسب دين الإسلام دين الغرباء والأجانب وكان ملوكها يستفيدون من علماء الإسلام ما يحتاجون إليه من الطب الروحاني أحسن ما كانوا يجدونه من الكهنة الكفار.

ولقد خضع جزء من هذه البلاد لنفوذ الإسلام بعد قيام دعوة ابن فودي وقيام دولته، حيث تصالحت قبائل ككندا وهكهك واكوكو على دفع الجزية لإمارة نوفي في عهد الأمير محمد سابا حوالى ١٨٤٠م. وحدث أن ثاروا مرة ونقضوا العهد فبعث إليهم الأمير ١٨٥٨م القائد البرناوي المظفر الشيخ عمر ماجيغى فدحرهم واستمر هذا القائد يطفىء نيران المشاغبات المتتابعة في بلاد اغبره في ناحية كبا إلى أن توفي ١٨٨٤م. فبذلك دخل قسم من تلك البلاد في إمارة إلورن ودخل قسم منها في إمارة بدا إلى يومنا هذا. أما مدينة بني العاصمة بما يعرف اليوم بولاية الغرب الأوسط فلم يثبت فيها الإسلام إلا من عهد قريب، وذلك بعد ثبوته في كثير من القرى التابعة لها.

الإسلام في بلاد ايبو:

تقع بلاد إيبو على حدود بنوى الغربية وحدود مصب نيجر الشرقية، وتاريخ قبائل إيبو القديم غامض للغاية ولم يعرف منه شيء إلا بعد نزول الانجليز إذ لم تكن بينها وبين قبائل نيجريا الباقية أية صلة تذكر، وليس للإسلام فيها خبر يؤثر. ولما دخل الانكليز إليها وجدوا بها أرضًا خصبة لغرس النصرانية الكاثوليكية. ولقد عرف أهلها الإسلام مع بدء التجارة بينها وبين قبائل هوسا الذين يشكلون جاليات صغيرة في مدنها الكبار في اونشا واينوغو وغيرها من البلاد. واشتهر في هذه الأيام رجل من قبائلها أسلم على يد الشيخ إبراهيم أنياس السنغالى حواليى ١٩٥٠. وتسمى باسمه واتصل بالهيئات الإسلامية والدول العربية ليساعدوه على نشر الإسلام في بلاده. وأسس مركزًا إسلاميًا في مدينة افيبو كما أسس الحاج تجاني مركزًا في مدينة أولو قرب أونشا.

من اسباب انتشار الإسلام في بلاد يوربا:

كانت بلاد يوربا قبل قيام الدولة الفودوية تتأثر بنفوذ الدول الإسلامية المتعاقبة في بلاد غانة ومالي وسنغى وبرنو وهوسا تأثرًا ضئيلاً وكان الإسلام ينتشر فيها انتشارًا تدريجيًا بطيئًا. وبعد قيام الدولة الفودوية بلغ الإسلام في جزء منها دور النضوج والارتقاء، فقامت الحكومة الإسلامية في مقاطعات إلورن فتأثرت البلاد الباقية بنفوذ هذه الدولة فصار الإسلام ينتشر فيها بالتدافق والاندفاع.

غير أنه لم ينتشر الإسلام مع ذلك بالقتال والنضال ولكنه انتشر فيها بجهود الواعظين المتجولين الذين قاموا بدور الجنود المجهولين وتوزعوا في

تلك الأصقاع المختلفة بدافع إيمانهم وقوة يقينهم، لا تبعثهم جماعة ولا حكومة ولا ترسلهم هيئة ولا منظمة وإنما يبعثهم إيمانهم بربهم وإخلاصهم لدينهم، وكانوا يستعملون التيسير والتدريج في تبشيرهم بالإسلام ويستعينون بالوسائل الجائزه لإستمالة القلوب وتسخير العواطف لهذا الدين.

ذلك لأن ملوك هذه البلاد كانوا قديمًا يتخذون من الكهنة عضداً في شئونهم، ويجدون من السحرة ملتحداً في حروبهم.

ولما جاء العلماء المسلمون لم يجدوا بدًا من استعمال ما يقوم مقام السحر والكهانة من الطاقات الروحية ليصرفوا بها وجوه هؤلاء الملوك إليهم.

فاستخدموا الروحانيات واستطاعوا أن يسيطروا بها على الماديات وتفوقوا على السحرة والكهنة في كثير من المناسبات فصار لهم مركز مرموق لدى الملوك والأغنياء ومقام محترم عند الأمراء والبسطاء.

فصار للإسلام عزة وكرامة في نفوس العوام فصارت الأعياد الإسلامية رسمية في البلاد كلها، يحتفل لها الملوك طوعًا وكرهًا ويقدمون الهدايا والعطايا إلى العلماء والأئمة، رغبة أو رهبة فصار للأئمة والعلماء في الدواوين الملكية صفة شبه رسمية أو دولة صغيرة داخل دولة كبيرة، يرأسها الإمام الكبير في كل مدينة ويؤازرها العلماء والفقهاء فاستطاعوا بذلك أن يثبتوا كيانهم ويفرضوا على الناس وجودهم بين أمواج الكفر المتلاطمة وفي وسط هؤلاء الأعداء المتظافرة، حتى صار الملوك يحسبون لعلماء الإسلام ألف حساب حتى اليوم ما لا يحسبونه للقساوسة والمطارنة ورؤساء الأديان الأخرى.